

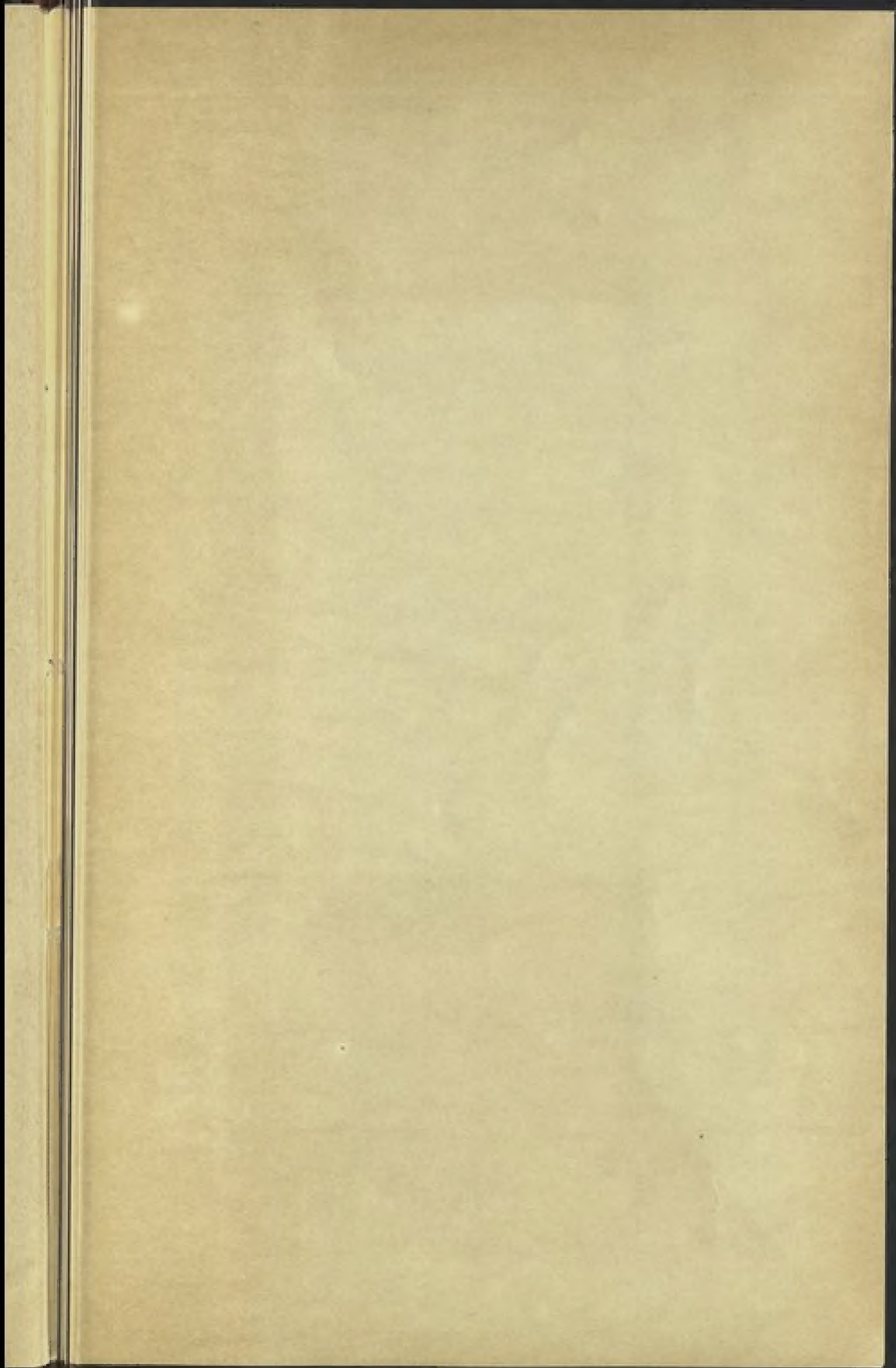
A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



١٤

تجليد صالح الدقر
٢٢٩٧٧



عبد الرحمن بن عبد الوهاب

نص الدراسة التي قدمها الاستاذ

حسن النمر

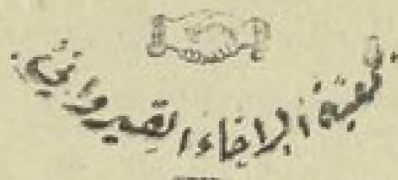
على منبر

جمعية الاخاء والقيرواني

غرة جمادى الثانية ١٣٧٥



بسم الله الرحمن الرحيم



— فرع تونس —

مما يبهج النفس ويبعث على المفاخرة والمباهاة، أن تتجمع
ثلاثة عناصر تجمعاً مباركاً على اخراج هذا السفر القيم من
الدراسة الممتعة صغيراً في حجمه كبيراً في فائدته .
وما هذه العناصر الا .

(١) مفخرة تونس والاسلام ، مبتكر طريقة النقد التاريخي
ومؤسس علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون .
(٢) أديب كبير وبخاتة ممتاز يفتخر به أدبنا التونسي المعاصر
الاستاذ حسن الزمرلي .

(٣) منظمة ثقافية هيكلها (شباب قوى الارادة، شاعر بمسؤوليته
القومية والتاريخية) وهي جمعية الاخاء القيرواني التي سارت
على سنى الاباء الاكرمين وامجادهم التي يفتخر بها تاريخ البحر
الابيض المتوسط مهد الحضارات ومسرح اقدم المدنيات - وبذلك
نستطيع تمثيل الوصل بين الماضي الزاهر والحاضر الباسم لاجل

مستقبل سعيد حافل بالمببرات لاننا لسنا من أولئك الذين
أعوزتهم الحيل وفقدوا الحول والقوة ، وراحوا عاكفين يتغنون
بماضى هو فى الحقيقة - ملك لاهله الذين عاشوه . وانما نحن
قوم نشعر أن مركز بلادنا العالمى كان ولا يزال المعيار الصادق
عن وجودنا فى بوتقة الامم الراقية القوية ، فلذلك طفقنا ننشد
أغاني المجد القديم مرفوقة باناشيد الامل الباسم ، أناشيد البعث
والثورة لخلق مستقبل هو رائد الجميع .

وما الحركات التى ستقوم بها جمعيتنا بمعية الجمعيات
الثقافية التونسية فى المستقبل الا اول واعظم برهان على وجود
تلك الارادة العارمة فى نفوسنا تدغدغ احلامنا وتخالج افكارنا
وستبرز للواقع لنساهم فى تشييد (تونس الغد) .

وان (جمعية الاخاء القيروانى) حين تقدم بكل فخر وسرور
حضرة استاذنا الجليل الاستاذ حسن الزمرلى ليدرس شخصية
ابن خلدون العالمية لا يسهها الا التعبير عن جزيل شكرها العميق
باسمها الخاص ونيابة عن الشباب الذى بقى متلهفا الى مثل
هذا البحث الموضوعى - ولسان حاله - يطالب ملحا من ادبائنا
النسج على مثل هذا المنوال ليتمكنوا الناشئة الادبية والعلمية
من زاد وافر المادة غزير القائمة .

وبهذه المناسبة تهيب جمعية (الاخاء القيرواني) بقيادة الراي
وزعماء الفكر ببلادنا أن يعكفوا على صقل مرآة تاريخنا الثقافي
الحافل ليزيلوا عنها تلك الغشاوة السميكة من الغموض والابهام
والجهل والنسيان وليبرهنوا للعالم ان لتونس (والمغرب العربي
عامه) رصيدا غنيا من الامكانيات العلمية، كيف لا وتاريخنا ذاك
يزخر بعشرات من امثال ابن خلدون .

فاليكم معشر اديباءنا ومفكرينا وزعماءنا تتجه صرخة
الاستنجد هذه وسوف لا يخل الشباب عن مدكم بما يمد به
الجندي رائده وقائده .

واليك ايها الشباب العربي دعوة (الاخاء) ترجوك البر
بالاجداد ومزج حاضرك بماضيك لتنتج عنها غدا كريما .

كما أن الساعة قد دقت (منذ حين) لنعمل على انفسنا
بتكوين وتشجيع مشاريعنا العلمية والثقافية .

الم يكفنا أننا لم نزل عالة على الانتاج الاجنبي .

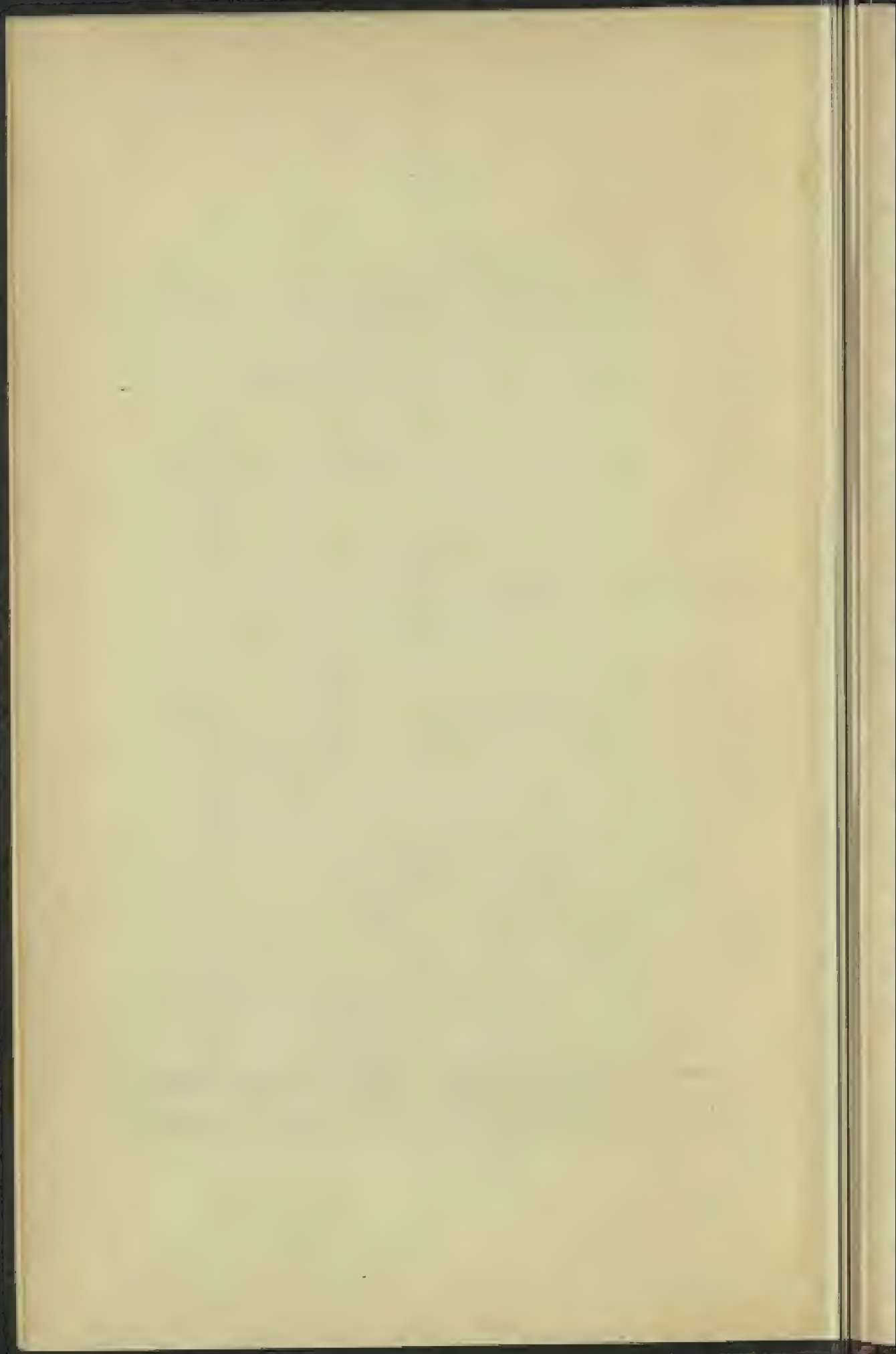
نعم كفانا من توهم العجز أو توقع الحيرة أو ليست
طريقتنا في حياتنا العلمية والثقافية والادبية الان طريقة من
يجتزأ أو يزدرد ما هو اجنبي عنه نعم اننا نتميز بالشرق
والانتساب اليه ونرنو الى التسرب لنقتبس منه أفضل ما في

مدنياته وثقافته لنحرز على ما يسمى (باللقاح) ولكن أليس فينا
وبيننا من وما يمكننا من تحاشي ذلك الاجترار وذلك الازدراء
وتعنى بهذا ما عناء الكثير من بعث (ثقافة قومية) لا يمكن أن
تبرز وتشاد هياكلها الا من افكار قومية وبسواعد سبر اصحابها
أغوار الواقع القومي .

فمتى نراك ايتمها (الثقافة القومية) ومتى ستبرزين للوجود
لتزييني جباهنا وتقليلنا معرة التقليد والمحاكاة .

وفى الحتام هاهي (الاخاء) تتبرا قائلة كفانا اننا شعرونا
فساهمنا قدر طاقتنا وبلغنا .

عن الهيئة رئيس الفرع
فرج الجباس



= تمهيد =

لقد سررت كثيرا لما دعتنى جمعية « الاخاء القيرواني »
للقيام بمحاضرة تحت اشرافها .

وسبب هذا السرور هو اننى ، ككل نو حسى ، محب لمدينة
القيروان الزاهرة العريقة فى النجد ، منبع الحضارة الاسلامية
العربية بالبلاد التونسية . ومببت كثير من الاعلام الذين رفعوا
راس بلادنا عاليا فى القديم وفى الحديث

واننى اذكر زيارة اديتيد . فى احد انفلاقتى . لناد من الندية
الشباب هناك . قلت فيها المحاضرين : لما احتل نابوليون
بولابارت البلاد المصرية فى اواخر القرن الثامن عشر ، ألقت هذا
القائد بحر جردده وقال لهم : ان اربعين قرنا من المدنية تبصركم
من اعلى هذه الاهرام . وانا اقول لكم : يا ابناء القيروان : ان
اربعة عشر قرنا من الحضارة الاسلامية العربية تبصركم من اعلى
صومعة عقبة بن نافع . فانتم مسؤولون عن هذه الحضارة واعادة
ازدهارها بين ربوعنا مكررا عند حسن الظن بكم حتى لا ينظر
هذا المشعل الذى اثار العالم فى العصور السابقة وسيعيد انارته
فى المستقبل اذا اردتم ان ينسج الخلف على ثرثار السلف .

فكاننى بهذا الكلام قد وجد عذاه وبيان ابناء القيروان
يعملون جادين للمشاركة فى بناء صرح الامة التونسية الجديد
فتدعونى جمعية ثقافية قيروانية لاتحدث اليها لا عن احد اعلام

القيروان ، بل عن شخصية عالمية فذة ، انبثقت التربة التونسية
قاهرت العالم بأسره بما أوتيت من قوة في الابتكار ، ومثانة
في التفكير وغزارة في العلم . فأسرعت في اجابة الطلب وشانا
بينكم اليوم لتتحدث عن عبد الرحمن بن خلدون .

ونظرا لكوننا نرمى من وراء هذا الحديث الى تلخيص أحد
المواضيع المرسومة ببرنامج المادة الكتابية من امحسان شهادة
التحصيل بالكلية الزيتونية العزيزة المعهودة ، وابرار اهم ما
يجب أن يعرف منه ، فان حدثنا سوف يكون هذه المرة أقرب
الى الدرس منه الى المحاضرة . لأن المحاضرة تقضى من المحاضر
أن يأتي بآرائه الخاصة - وما يقدمه لسماعه . وهذه الصورة لا
تكون ممكنة الا اذا انحصر بحثنا ودراستنا في نظرية واحدة من
نظريات ابن خلدون ، أو باب واحد من ابواب مقدمته المفحمة
بالآراء القيمة ، والابتكارات العجيبة ، والملاحظات العميقة . وإذا
تناولنا تلك النظرية ، أو ذلك الرأي ، أو الابتكار أو الملاحظة
و بالتفصيل والتعليل ، على حد قول صاحبنا . وليس هذا ما
طلبنا بالقيام به .

ولذا فان عملنا سوف يكون مقصورا على جمع أهم ما نعلمه
عن حياة ابن خلدون وآرائه الفكرية ، وعلى التعرض لأهم ما قاله
فيه من درسه من كتاب الشرق والغرب مع التبسيط في الطريقة
التي ابتكرها لكتابته التاريخ والعلم الجديد الذي أنشأه ليدعم

به تلك الطريقة ، وهو علم الاجتماع ، ونقدم هذا العمل
المواضع ، في عدد محدود من الصفائف ، لابنائنا طلبة الزيتونة
كمذكورة يستعينون بها عند المراجعة ، وعملا بهذه الطريقة
نقول :

نقسم حياة ابن خلدون الى ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : من ولادته الى الواحدة والعشرين من عمره

وهي مرحلة تعلم ودرس وتطلع ، وتنتهي هذه المرحلة بالتكبة
الاولى التي انابت ذلك الشاب من جراء الطاعون الجارف الذي
اودعه ابويه وعالمه مشيخته .

المرحلة الثانية ، من الواحدة والعشرين الى الرابعة

والاربعين وهي مرحلة السقايات في مختلف انحاء المغرب ،
وبلان الاندلس ، ودخول المقامرات ، والتقلب في الوظائف
السامية ، وتنتهي بتكبته الثانية وهي اخفاق مساعيه ، واغلاق
جميع قصور المغرب في وجهه ، واعراض جميع الملوك والسلاطين
والامراء عنه .

المرحلة الثالثة ، من الرابعة والاربعين الى وفاته في الثامنة

والسبعين . وهي مرحلة الاعتكاف والانقطاع للتأليف والدرس
يقلعه ابن سلامة وتونس ثم للدرس ومباشرة خطبة القضاء
بارض الكنافة . وتدخلها تكبته الثالثة بفقدان عائلته وكل ما

جمعه من مشاع .



فتحن الان في النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة ،
الموافق للنصف الثاني أيضا من القرن الرابع عشر للميلاد ، اى
فى ذلك العهد الذى حدثت فيه انقلابات كبيرة فى الشرق
والغرب آلت الى نهضة هذا وتقهقر ذلك ، اذ استيقضت البلاد
الاروبية من سبات القرون الوسطى ، واخذت تتحضر للنهضة
والانبعاث بعد ما قطعت كل صلة مع العالم العربى الذى
استفادت منه ايما افادة ، وبعد ما اخذت منه ما اخذت من العلوم
والفنون والصناعات ، وبعد ما اُنشأت الجامعات الجديدة ، فى
مختلف مدنها ، على غرار الجامعات العربية وعلمت فيها بكتب
علماء العرب ، وفلاسفة العرب ، وادباء العرب وقد نقلت عيون
مؤلفاتهم الى اللغة اللاتينية - وعلى لغة العلم بغرب أوروبا فى
ذلك العصر - وبعد ما اُنشئت رجالا أمثال دانتسى ، وبيترارك ،
وبوكاتشيو ، وفرواسار ، ففتحوا على بصيرتها ، وأشعروها
بعزتها ، فشرعت من ذلك الحين فى سيرها نحو السيادة على
العالم

وكان هذا العهد بالنسبة للبلاد العربية على نقيض ما كان
عليه بالنسبة للبلاد الاروبية - فقد اخذت فيه النكبات تنصب
الواحدة تلو الاخرى على العالم العربى - فتفككت وحدته وأضحى
فريسة سهلة لاقتناء لذوى الاطماع واصحاب الظموح ومحبي

المرآسة ، والدعابة الى الاستقلال برقع صغيرة مما كان العالم
الاسلامى الموحد تحت لواء الخلافة ، فالدولة السلجوقية قد
انقرضت فى الشرق وأدى انقراضها الى انقسام البلاد الى
دويلات وامارات صغيرة .

وفى بلاد الاندلس تغلب ملوك الاسبان على المسلمين
فاطردوهم من غالب عواصمهم ومدنهم ولم يبق مؤقتا بين أيدي
المسلمين الا رقعة صغيرة تتوسطها غرناطة، مدينة الفن واللهو،
بيد الملك محمد بن الأحمر .

واما المغرب العربى فقد قسم الى ثلاث دول أصليه بين أيدي
الحفصيين بافريقيا وعاصمتهم تونس، وبنى عبد السواد بالمغرب
الوسط وعاصمتهم تلمسان، وبنى مريش بالمغرب الاقصى .
وعاصمتهم فاس . وداخل هذه الدول الثلاث دويلات وامارات
صغيرة ثانوية فى بعض القواعد والثغور فى حكم بعض الحوارج
والزعماء الاقوياء .

وفى ذلك العهد ، كانت الثورات والانقلابات مستمرة
تكاد لا تنقطع والدول تتعاقب بين مختلف المتغلبين والاسر .
وكانت لشظرم حول اندالكيا معارك لا نهاية لها . فكانت عروش
المغرب يومئذ تهتز كلها فى يد القدر ، وكانت قصوره لذلك
مهبط الاطماع والمنافسات ، ومكن الدسائس والمكائد ، والعروش

دائمة اللغاب والتداول ، والحروب والمعارك الداخلية دائمة
القصور بين مختلف الأسر وفروع الأسرة الواحدة . (١)
وبالرغم من أن تلك القصور كانت في فترات السلم والهدوء
القصيرة ، محظ العلماء والأدباء ، وبالرغم من أن السلاطين
والملوك والأسراء كانوا يتفادون جنب هؤلاء الرجال أي أن
يهم بلاطهم ، فإن الحركة العلمية قد توقفت باستمرسال الحوادث
الحربية كما توقفت بالشرق لأن عدم استقرار الحالة السياسية
وكثرة الاضطرابات لا تترك للأفكار اللامعة والقرائح الفياضة
مجالا للاستمرار في عمل جاد يتطلب الهدوء والسكينة والإطمئنان
على النفس والأهل . وقبل ما سمعنا برجل دخل مثل هذه
المعارك بدعوة إليها طموحه نحو المعالي فربحت في أميائها
ومحركاتها ونتائجها ، ويقيم على بحثه علما جديدا يركز عليه
حياة المجتمعات وتطورها . ومع ذلك فقد وجد هذا الرجل ليكون
خاتمة أهل العلم والفلسفة لذلك العهد وحامل مشعل علم
الاجتماع للعصور الموالية .

ففي وسط هذه الزواجع المستمرة التي كانت تهتز لها
عروش المغرب العربي ، والتي سبالت فيها الدم ، وجف القلم ،
نرى شابا لم يتجاوز الواحدة والعشرين من عمره ينسل خلسة
من هوازة بعد ما شهد هزيمة جيش سيده الوزير محمد بن
(١) عبد الله عنان - ابن خلدون .

تأفراكين المستبد على الدولة يومئذ بتونس ، فينجو بنفسه الى
أبيه وهي فرصة كان يترقبها ، المنزوح الى المغرب الأقصى للبحث
وراء طالع له وليعالج تحقيق اطماعه حيثما يلوح افق المغامرة الوسع
وأجدى ، ،

فمن هو هذا الشاب ومن اين منبته ، وما شأنه ، وما هي
قيمه ، وما كان مصيره وما ترك من بعده من تراث ؟

هذا الشاب هو ولي الدين عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن
محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمان بن
خلدون . ولد بتونس في غرة رمضان سنة ٧٣٢ الموافق للسابع
والعشرين من شهر ماي سنة ١٣٣٢ م بالنهج المعروف اليوم
بنهج تربة الياي وبالمحل الذي تشغله اليوم المدرسة الادارية .
وهو من اسرة اندلسية يرجع اصلها الى العرب اليمانية بحضرموت
تزوجت من الاندلس في اواسط القرن السابع الهجري .

قلنا ان ابن خلدون قد انسل خلصة من معسكر ابن
تأفراكين لينجو بنفسه ويبحث وراء طالع . ولم يكن هذا الصنيع
من طرفه نتيجة فزع اعتراه او فكرة تلقائية دفعته بل هو نتيجة
تفكير طويل مرتكز على اسباب عديدة أهمها :

١ - ان عبد الرحمان بن خلدون ينتمي الى اسرة ماجدة ، عريقة
نابهة وببيت علم ورأسة ، تملك عدد كبير من أعضائها في مناصب

الزعامة والرياسة سواء في صدر الإسلام قبل انتقالها إلى
الاندلس أو بالاندلس نفسها أو بالمغرب الأقصى . فهو يتصل
في سلسلة أجداده بسيدنا عمرو بن العاص وإن اثنين من رجال
أسرته كانوا من زعماء الدولة الأموية وقد شاركوا في القبض على
زياد بن أبي سفيان المعروف في كتب التاريخ بزياد بن أبيه وإلى
العراق وأخ سيدنا معاوية بن أبي سفيان ، أول خلفاء الدولة
الأموية وعنه ذكر حصر الملك والحلافة في العتبات الإسلامية . وإن
كريب وخالد ابني خلدون كانوا من زعماء الشيعة بالشمالية في
أواخر القرن الثالث وإن فخر بن خلدون كان ساطعاً في عهد
الطوائف عند ما استولى على غلباء على الشيعة . وإن جماعة منهم
شاركوا في موقعة الزلاقة التي انتصر فيها المسلمون على
الفونس السادس ملك قشتالة . وإن أسرته نعمت بالجاه والسمعة
أيام الدولة الحفصية وإن حمد الثاني أبنا بكر محمد بن خلدون قد
ولى شؤون الدولة في عهد أبي إسحاق الحفصي وإن حمد محمد
بن أبي بكر قد ولى الحجابة لأبي فارس وإن والده حمدان لم
يشارك في الحياة السياسية فلأنه زهد فيها وأثر عليها حياة
الدرس والعلم والشرف ، حتى كان من أكابر الفقهاء وعلماء
اللغة .

وقد أراد عبد الرحمن اقتفاء خطى أسلافه فلا غرابة إذن في
أن يكون طموحاً إلى المعالي محباً للزعامة والرياسة وقد اجتمعت

في راسه وفي نفسه نفحة الجدود وعلوم الوالد الودود .
٢ - لان ابن خلدون لم يكن مسافرا بدون زاد . وان هو قرر
مغادرة مسقط راسه لما لاحظته بتونس من الاضطرابات التي لا
تسمح له بتحقيق أمنيته ، فانه قد هيا نفسه لان يشغل المناصب
التي شغلها افراد أسرته من قبله فثقف نفسه ثقافة متينة واسعة
منوعة . فقرأ القراءان العظيمين بالقراءات السبع المشهورة افرادا
وجمعا على الاستاذ المكتيب ابي عبد الله محمد بن سعد بن برال
الانصاري وعرض عليه قصيدتي الشاطبي : اللامية في القراءات
والرافية في الرسم ، وعرض عليه كتاب التفسير لاحاديث الموطأ
لابن عبد البر ودرس عليه كتابا جمعا مثل كتاب التسهيل لابن
مالك . ومختصر ابن الحاجب في الفقه . وتعلم صناعة العربية
على والده الذي كان يشمله بعطف خاص ويميزه على بقية أبنائه
وعلى الشيخ ابي عبد الله محمد بن العربي الحصائري وعلى ابي عبد
الله محمد بن الشاوش الزرذالي وابي العباس أحمد بن القصار ،
وعلى امام العربية والادب بتونس ابي عبد الله محمد بن بحر وكان
حسب قوليه بحرا زاهرا في علوم اللسان فحفظ عليه كتاب
الاسعار الستة ، والحماسة للأعظم . وشعر حبيب وطائفة من
شعر المتنبي ومن اشعار كتاب الاغاني ، ولازم مجلس امام
المحدثين بتونس شمس الدين ابي عبد الله محمد الوادياشي ،
صاحب الرحلتين وسمع كتاب الموطأ من اوله الى آخره وبعضا

من الامهات الخمس . وناولته كتبها كثيرة في العربية والفقه .
كما أخذ الفقه عن أبي عبد الله محمد بن عبد الله الجيساني وأبي
القاسم محمد القصير وقد قرأ عليه كتاب التهذيب لأبي سعيد
البرادعي وكتاب المالكية وتفقه عليه . وكان ينتاب مجلس الشيخ
الامام قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام فأخذ منه
وسمع عليه كتاب الموطأ للامام مالك .

والى جانب هؤلاء العلماء الاجلاء فقد اتصل الشاب عبد
الرحمان بن خلدون بالعلماء الذين قدموا على تونس في جملة
السلطان أبي الحسن المريني عند ما زحف على افريقية وملكها
سنة ٧٤٨ وعلى رأسهم شيخ العلوم العقلية أبو عبد الله محمد بن
ابراهيم الايلي الاخصائي في كتب التعاليم والمنطق والاصول .
ويظهر من كلام ابن خلدون عن الايلي أن هذا العالم الممتاز
قد ترك في نفسه أثرا عميقا وأنه هو الذي وجهه نحو التفكير
المنطقي وتحكيم العقل ، كما يظهر أن ما جاء في تأليف ابن خلدون
من دقة في التفكير وحصافة في الرأي وضبط في التعبير وقوة
في الحجج إنما هي نتيجة تأثير الايلي وطريقته في البحث والتفكير
فمن البديهي ومن المقبول أن الرجل الذي انحدر من مثل
هذا الصعيد واكتسب مثل هذا العلم وامتلأت نفسه بمثل هذا
الطموح لم يكتفِ ليرضى برؤية كثرية العلامة التي كلفها بها الوزير
محمد بن تافراكين عن سلطانه الغني أبي اسحاق .

٣ - أضف الى ذلك أن الكارثة العظمى التى نكسب بها العالم الاسلامى كله من سمرقند الى المغرب ، ونعنى بها الفناء الكبير أو الطاعون الجارف ، كما يسميه صاحبنا تلك الكارثة التى طوت البساط بما فيه وفيها ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواه فلم تبق له الا البعض من اخوته . فتمكنت من نفسه الوحشة وتعذر عليه الاستمرار فى الدرس واستتكت البقاء فى وسط أصبح يحس بالقرب فيه بعد ما فقد أعز ما لديه .

٤ - وبما أن الفكرة الوطنية لم تكن معروفة يومئذ بالمعنى المعروف لدينا الآن وبما أن الله لم يضرب حدودا طبيعية بين الاقطار المغربية ولا بين الاقطار العربية بصورة عامة . ولم تضرب بعد حدود اعتبارية بين مختلف جهات الوطن الشمال الإفريقى . كما هى الحالة الآن ، وبما أن المسلم يعتبر نفسه بحق فى وطنه حينما نطق بالشهادتين ونودى بالصلوات وسادت لغة القرآن ، فإن هذا الشاب الماجد ، العالم ، الطموح ، ذا الفكر اللامع والذكاء الوفاد لم يجد ما يحول دون رغبته فى مبارحة الاوطان والسعى وراء طالعه كما ذكرنا ولذا رأيناه يتسلق صفوف الجند المهزوم ساعيا فى الالتحاق برجال بنى مرين وبالعلماء الذين تعرف اليهم بتونس وأعجب بهم .

ونحن نحمد الله أن غرس فى روح ذلك الشاب طموحا قويا قذف به خارج مسقط رأسه ودفعه الى السفر والمغامرة والتقلب

في بلاد المغرب والاندلس ومصر والشام لانه لولا ذلك الظموح
وتلك القوة وذلك الاندفاع، لما بقى لابن خلدون اسم يذكر
ولما ازدان تراثنا الفكري والادبي بما أنتجته تلك القريحة
الممتازة من علوم تركز عليها اليوم حياة الدول وما سجله ذلك
الفكر الجبار من آراء وملاحظات كانت خطة جديدة في ميدان
البحث والكتابة .

لان الجدير بالملاحظة هو أن ابن خلدون لم ينظر الى الاشياء
والرجال بالعين التي نظر بها اليها الرحالون امثال ابن بطوطة
وابن الجبير بل انه تعمق في مكانتها بمجهره الثاقب، فبحث عن
اسبابها وأبصر تطوراتها وامعن في نتائجها وربط بين مختلف
الاسباب والتطورات والنتائج واقام على هذا العمل نظريات لم
تزل قائمة الى هذا اليوم بالرغم من تقدم علم الاجتماع وتطور
نفسية المجتمعات

قلنا : خرج ابن خلدون من معسكر ابن تافراكن في أوائل
سنة ٧٥٣ فقصداً إلى تبسة ثم تحول إلى تبسة ثم سافر إلى قفصة ثم
إلى بسكرة .

وسوف نراة من ذلك الوقت ينتقل من بلد إلى بلد ومن
مدينة إلى مدينة ومن قطر إلى قطر تدفعه نخوة الشباب وتحمله
غلبة الظموح إلى مناصب النفوذ والسلطة والراية باحثاً دائماً

في زيادة الرقي منتهزا لذلك جميع الفرص مستعملا جميع
الوسائل الشرعية منها وغير الشرعية متناسيا في غالب الاحيان
ما يفرضه الاخلاص والاباحة والولاء معتقدا ان الغاية تبرر لدية
كل وسيلة فمدس الدسائس ويكيد المكائد ويخون اولياء نعمته
ويدعو خصومهم كل ذلك بدون أن تبدو منه امة حسرة أو
لفظة ندم .

وهذا السلوك الذي يبدو غريبا بالنسبة لاهل العلم والادب
هو الدعاء والحكمة في نظر رجال السياسة والطموح وهو الذي
يشي عليه ما كيا قال قاعدة الحكم في كتابه ، الامير ، .

وهكذا نرى ابن خلدون بمدينة فاس يشغل مصيفا هاما
بين كتاب السلطان أبي عنان وموقعه حتى يطلع السلطان على
المؤامرة الجارية بين عبد الرحمن والامير عبد الله محمد صاحب
بجاية المخدوع فيقبض عليه السلطان ويمتعه ويحبسه . فيبقى
في غياهب السجن بالرغم من استعطائه وتوسلاته وقصائده
الطويلة الى وفاة أبي عنان . ثم يطلق الوزير الحسن بن عمر
سراحه ويعينه الى ما كان عليه . فراه يخدع هذا الوزير
لفائده المتغلب عليه المنصور بن سليمان ثم نراه يدعو لابي
سالم اخ السلطان ابي عنان ضد المنصور بن سليمان فيصبح
كاتب السر والانشاء لابي سالم بعد انتصاره على ابي سليمان

ويقول ابن خلدون : انه نهج يومئذ في كتابة الرسائل
نهجا جديدا اذ تحرر من قيود السجع وكان اذ ذاك قاعدة الكتابة
وعدل عنه الى السهل الرسل : كما يقول : « وتفتحت
شاعريته في هذه الفترة فنظم كثيرا من الشعر الذي يتوسط
بين الاجادة والقصور » فاشهر امر نغمته ونثره في دوائر
الشعر والادب بالمغرب والاندلس .

ولم يلبث ابن خلدون مع السلطان ابي سائيم مدة عامين
حتى « ضعفت حظوته لديه » وتوارى نفوذه لشدة المناقصات
التي اضطرمت بينه وبين رجال الدولة وعلى الاخص بينه وبين
الحطيم بن مرزوق صديق السلطان وقد استبد ابن مرزوق
هذا بالامر الى ان ثارت ضده وضد سيده ثورة عتيقة من طرف
الوزير عمر بن عبد الله ومن اليه . فالت هذه الثورة الى
القبض على السلطان وقتله . وكان ابن خلدون حسب عادته
الى جانب المنقلب . فافره في وظائفه . ولكن ابن خلدون كان
« يسمو بطغيان الشباب الى ارفع مما كان فيه » فلم يجد لدى
عمر بن عبد الله ما يحقق امانيه . فغضب واستقال من وظائفه
فوقع رد الفعل من طرف الوزير الى ان خشي ابن خلدون عن
نفسه . فاستأذن في العودة الى تونس مسقط رأسه . فلم
يرخص له الوزير بذلك وانما اذن له بالسفر الى الاندلس .

فتراه مكرما مبجلا في بلاط الملك محمد بن الاحمر
وتراه مكرما مبجلا من طرف وزيره لسان الدين بن الخطيب .
وترى الملك يكلفه بامورية سياسية لدى دون بادرو القاسي
ملك قسنالة . وترى نجاحه في تلك الامورية . ثم ترى الملك
ينقبض عنه الر منافسته مع ابن الخطيب . فينتهز فرصة عودة
الامير ابي عبد الله محمد الى بجاية وقد استرد ملكه فيغادر
الاندلس فاصداً الأملحاق بصديقه وذلك في منتصف سنة ٧٦٦ هـ
١٣٦٥ م

ويقول ابن خلدون في حديده عن دخوله بجاية : « فاحتفل
السلطان بقدومه واركب للقائي وتبادلت اهل البلد علي من كل
اوب يستحون اعطاني ويقبلون يدي وكان يوماً مشهوداً »

فتراه يتولى في الحال منصب الحاجب السلطان بجاية . وكان
هذا المنصب في الظاهر على الأقل نهاية ما يصبر اليه ابن خلدون
حيث ان المجاية حسب قوله . « هي الاستقلال بالدولة
والوساطة بين السلطان واهل المملكة لا يشاركه في ذلك احد »
ولربما استقر في منبره لو استمر ابو عبد الله محمد في الحكم
غير ان ابن عمه سلطان فسنطينة ابو العباس هجم عليه
وفتله سنة ٧٦٧ هـ فترى ابن خلدون ينسى حديقه ورقيقه في
المنعة والسجن بمدينة فاس ويتطوى تحت لواء الظافر . فيكرمه

ثم يتحرف عنه • فينسل هارباً الى يسكرة ويقيم بها مدة في
انتظار الحوادث

ثم تراه يقوم بدعاية واسعة النطاق لفائدة ابي حمو امير
تلمسان وصهر ابي عبد الله محمد مع الانقطاع الوقفي الى العلم
والافراء لانه يدعى • ان نفسه قد سئمت مخاطر المغامرة واهوال
الوظيفة وزهدت في غواية السرتب واشتأقت الى الدرس بعد ان
هجرت له طويلاً •

ثم تراه يحاول احكام الصلة بين ابي حمو وابي اسحاق
سلطان تونس

ثم يحاول ولاه لسلطان تلمسان لفائدة عدوه عبد العزيز
ابن الحسن صاحب المغرب الاقصى ويدعو اليه قبائل الصحراء •

ثم تراه من جديد بمدينة فاس عندما ساءت العلاقات بين
بلاط فاس وبلاط غرناطة من اجل الوزير لسان الدين بن
الخطيب • فيقبض عليه حيناً ثم يفرج عنه • فيقرر الرحلة الى
الاندلس بعدما اغلقت في وجهه قصور المغرب كلها • فيدخل
الاندلس سنة ٧٧٦ تاركاً عائلته بفاس

وعندئذ كان موضوع المساومة المشينة التي دبرها ابن
زمرق ضد شيخه واستاذة ابن الخطيب متهماً اياه بالزندقة

والخروج عن شريعة الاسلام فتالت الى مصرع ابن الخطيب وهي
قيمة كبيرة الاستعمال في ذلك العصر مثل غيرها من التهم
المستعملة بين ربوعنا في عصرنا هذا .

فيعود ابن خلدون الى المغرب ويعيد ربط الصلة بينه وبين
ابن حمو . وبعد ذلك يفرز الاعتزال فيلتجئ الى فلسفة ابي
سلامة في احياء بنى عريف وهناك يشرع في كتابه تاريخه
ويبتدؤه بمقدمته المشهورة . فيقول : « فاقمت بها - اي بفلسفة
ابن سلامة - اربعة اعوام متخليا عن الشواغل وشرعت في
تأليف هذا الكتاب وانا مقيم بها . واكملت المقدمة على هذا النوع
الغريب الذي اهديت اليه في تلك الخلوة فسالت فيها شتاييب
الكلام والمعاني على الفكر حتى امتلأت زبدتها وثالثت نتائجها ،
وكان ذلك سنة ٧٧٩ - ١٣٧٧ م .

وبعد هذه العزلة الطويلة يلتمس ابن خلدون الاذن من ابي
العباس الحفصي ملك تونس في العودة الى مسقط رأسه . فيرخص
له بذلك . فيعود صاحبنا الى تونس سنة ٧٨٠ وينشئ المدرس
والتعليم بين اعراض الزيتونة المعمورة التي انجبت له كما انجبت
وما زالت تنجب كثيرا من فطاحل الرجال وقادة الفكر . واقام
بها محفوا بالرعاية والتقدير في دعة وأمن وسعة . وهناك اتم
تأليفه ورفع نسخته الاولى الى السلطان ابي العباس في اوائل
سنة ٧٨٤ - ١٣٨٢ م .

بيد ان هناءه لم يظل بتونس . فان ما حياه به السلطان
من احسان ورعاية وما اظهره من تفوق على سواء في المجالس
العلمية والادبية وما وجده من اقبال من طرف التلامذة وقد
اعرضوا عن حلقاته سواء من المشيخة كل ذلك انما من حوله
الدسائس والاحقاد والحسد لا سيما من طرف خصمه الفقيه الامام
ابن عرفة . شيوخ الافناء - وكل ذي نعمة محسود - والتاريخ
يعيد نفسه . فاعتزم صاحبنا مغادرة تونس بدعوى رغبته في
اداء فريضة الحج والحقيقة انه سئم الحياة بين قوم :

لا يعرفون الفاضل بفضيلة وهو لكل نقيصة ذكاز
فتحصل على الرخصة . وكانت الهجرة الاخيرة التي لا
عودة بعدها . فغادر مؤرخنا تونس في منتصف شعبان سنة
٧٨٤ - اكتوبر ١٣٨٢ وكانت سنة اذ ذاك اثنتين وخمسين
سنة قمرية .

ويقول البهائية الاستاذ محمد عبد الله عنان عند بلوغ ابن
خلدون هذه المرحلة من حياته :

وهكذا اختتم ابن خلدون بالمغرب حياة حافلة بصنوف
المغامرات والحوادث . ولم تكن بلا ريب خاتمة باهرة . ولم تكن
مما يرضى نفسه الكبيرة . كان ابن خلدون بلا ريب اعظم
سياسي ومفكر عرفه افريقية والاندلس في القرن الثامن الهجري

وكانت تلك الحلال والمواهب البديعة التي حملته الى ذروة
الحوادث وجعلت منه شخصية بارزة في تاريخ المغرب وقطوراته
السياسية مدى ربع قرن واستطاع بفضلها ان ينعم بالزعامة
والنفوذ الواسع بين تلك القبائل الصحيرية التي عرفت دائما بقوة
الشكيمة وجفاء النزعة خليفه بان تهيء له مكانة رفيعة وطيدة في
دول العصر وقصوره .

وقد انفق ابن خلدون ربع قرن في خوض غمار السياسة
ودسائس القصور . وتقلب في خدمة جميع الدول المغربية وتمنع
مرارا بمزايا السيادة والحكم وذاق مرارا محن النقمة ومرارة
الاعتقال والاسر وخطر الهلاك ثم اذا به بعد طول العناء والجهد
يجد نفسه حيث بدأ ويصبح فاذا به قد فقد عطف جميع القصور
والدول التي تقلب في خدمتها واسدى اليها اجل الخدمات احيانا
ثم اذا به يجد نفسه في هذا الملاذ الاخير الذي آوى اليه واستقر
في ظلاله موضع السعاية والكبد . وكان يشعر منذ حين بمروءة
هذه الحبة ويلتمس السلوى في البحث والتأليف . وقد هدأت
نفسه المضطربة بشغف النضال والمعامرة وعاف احداث السياسة
واخذ ينجم بقضاء تلك المهام السلطانية التي كان يتخذ قضائها
وسيلة للنفوذ والرأسة . وكان يتشد الاستقرار والحياة الهادئة
بعد طول التجوال ويرجو ان يطوى مرحلة الحياة في وطنه وينوى

اليه الشواء الاخير الى جانب آبائه واجداده . ولكنه لم يظفر
حتى بتلك الامنية المتواضعة والزعجة كيد خضومه في مقامه الهادي ،
وخشى اخيرا عاقبة الكيد والسعاية ولم يجد في تونس ما كان
يشهد من هدوء وسكينة فاطفر ان يلتمس الحج عذرا لمرحيل
والنجاة وان يودع الاهل والولد وان يغادر الوطن وحيدا قريدا
الى حيث لا يعلم ما اذا هيأت له الاقدار

هذه لعمرى دمة جميلة اذرفها الاساذ محمد عبد الله
عنان على ابن خلدون عند انتهاء المرحلة السياسية من حياته
وعند ما قرر الهجرة من بلاد الى الشرق . ولو لم يكن ابن
خلدون الا رجلا سياسيا لكان الاساذ الجليل محقا في قوله . ان
ابن خلدون رجع حيث بدأ . فذلك هو مصير غالب رجال السياسة
لكن تلك الجولة الكبرى التي قضى فيها ابن خلدون اكثر من ربع
قرن هي التي مكنت مؤرخنا ومنكرنا من الاطلاع على حقائق
المجتمعات ودراساتها والنظر في احوالها وحملته على كتابة
تاريخها وكانت نتيجتها ابتكار طريقته المثل في كتابة التاريخ
وعلى انشاء علم الاجتماع . لان ابن خلدون لم يسارح مسقط
راسه قصد الاطلاع والدراسة والتأليف ولكنه انتقل الى المغرب
قصد التحصيل على التفوذ والمراتب العالية . فلما تذوق الى ما في
الحياة السياسية من لذة قصيرة الابد ومرارة طويلة الاجل وتبين
من ان الراحة والهناء والطمانينة ليست من خصائصها وان الشهرة

المرتكزة عليها إنما هي زائلة وإن حياة الدسائس والخيانات
والغامرات لا تأتي بظائل ولما رأى نفسه مطرودا منها بدون أى
اعتبار لقيمه العلمية والأدبية تحولت همهته عندئذ نحو ما يرفع
صاحبه ولو كان فقيرا نحو ما يحقق التقدير والاعتبار والرفعة
فى الحياة وما يحقق حسن الذكر ودوام الرحمة وحتى الخلود بعد
المات تحولت همهته نحو العلم والاقراء والدرس والتأليف .
فكان ابن خلدون . فهو إذن لم يرجع حيث بدأ . بل ترك مسقط
رأسه كرجل سياسى فقرأ كتاب الحياة وحنگته التجارب فتمكن
بالقلب وترك القشور وعاد الى تونس مؤرخا عالما فيلسوفا يحمل
فى حقيبته تاليفها جعله سيد عصره فى مشارق الارض ومغاربها .
ثم ان ابن خلدون قرر الهجرة من مسقط رأسه للأسباب
التي ذكرها الاستاذ محمد عبد الله عنان والسبب آخر اغفل عليه
او تغافل هو عنه لانه لم يعيش فى ربوعنا ولا يعرف بمسيرتنا
نحن معشر التونسيين . وهو سبب ذكرناه فى جميع المناسبات
من دروس واجتماعات ومحاضرات وفصول بالصحف والمجلات .
وهو حقيقة مرة من واجبتنا ان نقولها ونعيدها ونذيعها وان احمر
لها جبيننا وهى ان التونسي قلما يعترف بقيمة اخيه التونسي
وان التونسي لا يؤمن بمقدرته ولا يكبر الا عمل الاجنبى ولا يقر
بفضل لابن جلدته ولو كان يدعى ابن خلدون ولو كان صاحب
كتاب العبر ومقدمته الفريدة فى نوعها . فنحن والحق يقال :

امة قد فت في ساعدها بفضها الامل وحب الغرباء

•••

ولنتحقق الان باين خلدون في منقاه الاختيارى بالقاهرة
لنراه مكرها متوج الرأس باكاليل التعظيم والاجلال في تلك
العاصمة الزاهرة التى اسمها ابناء بلاده والتى وصفها بقوله انها
« حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الالم ومدرج النور من
البشر وايوان الاسلام وكرسى الملك » وقد سبقته اليها شهرته
وشهرة مقدمته وانتشرت نسخ تاليفه في التاريخ فنرى العلماء
والطلاب يقبلون على طريد تونس من كل صوب • فيقول صاحب
المنهل الصافى : « واستوطن القاهرة وتصدى للاقراء بالجامع
الازهر مدة واشتغل وافاد » فكانت نتيجة اقامته بالقاهرة ان
انجب ان اذا امثال تقي الدين القريزى الذى حفظ وده وقدر
حقه عليه والحافظ بن حجر الذى طغت عليه العنصرية القرعونية
فاصبح من اشد خصومه •

ثم سمي مدرسا بالمدرسة القمحية بجسوار جامع عمرو بن
العاص وهو من منبته كما ذكرنا ثم عين بعد سنتين من حلوله
بمصر قاضيا لقضاة المالكية في اواخر جمادى الثانية سنة ٨٧٦
اوت ١٣٨٤ م • وشغل هذه الحطة ست مرات في بحر الاربع
والعشرين سنة التى قضاها بالقاهرة من تاريخ هجرته الى وفاته •
ويقول صاحب المنهل الصافى انه « باشر القضاء وبحرمة وفسرة

وعظمة زائدة وحدث سيرته ودفع رسائل اكابر الدولة وشفاعات
الاعيان فاخذوا في التكلم في امره .

فان يكن اكابر الدولة واعيان القوم من معاصريه قد
احتدوا عليه من صلابة موقفه معهم فهذا امر طبيعي وان كانوا
غير محققين في سلوكهم ولكن الامر الذي تعجبنا منه كثيرا هو
ما أبداه الاستاذ محمد عبد الله عنان من الراى في ولاية ابن
خلدون لحطة القضاء . فالاستاذ يقول : « ونستطيع أن نقرر أن
ولاية ابن خلدون لحطة القضاء لم تكن حادثة عادية . فقد كان
أجنبيا ، وكان تقدمه في خطوة السلطان وفي نيل المناصب سريعا
وكانت مناصب التدريس والقضاء دائما مطمح جمرة الفقهاء
والعلماء المحليين ولم يكن مما يحس وقعه لديهم أن يفوز بها
الاجانب الوافدون دونهم . واذا فقد تولى العلامة المغربي منصبه
في جو يشوبه كدر الخصومة والحسد . »

فيظهر جيدا من هذا التصريح الغريب أن الاستاذ عنان
قد ارتكب الهفوة التي حذرنا منها ابن خلدون وهي قوله :
« ربما يسمع السامع كثيرا من أخبار الماضي ولا يتفطن لما وقع
من تغير الاحوال وانقلابها فيجريها لأول وهلة على ما عرف .
ويقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيرا فيقع في
مهواة من الغلط . »

فكيف يعتبر الاستاذ عثمان ابن خلدون أجنبيا في مصر
في القرن الثامن ؟ وابن خلدون مسلم العقيدة عربي المنبت ،
عربي اللغة والبلاد الاسلامية قاطبة عندئذ موطن وموطنه لكل
من كان يتمتع بهذه الصفات ؟

وهل يعتبر أجنبيا في أى بلاد ذلك الذي بلغ الدرجة التى
بلغها ابن خلدون من العلم والادب ؟

وهل كان فى ذلك العهد بالقاهرة من يعادل ابن خلدون
فى مكانته العلمية حتى يقف منه وقفة الند للند وتشير ولايته
حسد الفقهاء والعلماء المحليين ؟ فقد عودتنا ارض الكنانة بتبني
العلماء والادباء وبانتسابهم اليها ولو كانوا غرباء عنها وعليه فان
السلطان الظاهر برقوق قد ابدى سداد نظر يشكر عليه وقد
احسن الى بلاده واهل مملكته فى اختيار هذا العلامة الذى وفى
جهده بما امنه عليه من احكام الله لا تاخذه فى الله لومة والذى
سوى بين الحصين آخذا بحق الضعيف من الحكيم معرضا عن
الشفاعات والوسائل من الجانبين جانحا الى التثبت فى سماع
البيانات والنظر فى عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات ، ويزيد
ابن خلدون قائلا : « فقد كان الير منهم مختلطا بالفاجر والطيب
متلبسا بالحبيث والحكام ممسكون عن انتقادهم متجاوزون عما
يظهر عليهم من صفاتهم لما يموهون به من الاعتصام باهل الشوكه

فان غالبهم مختلطون بالامراء معلمون للقرآن واثمة للصلوات
يلبسون عليهم بالعدالة فيقننون بهم الخير ويقسمون لهم الحفظ
من الجاه في تزكيتهم عند القضاة والتوسل لهم فاعضل داؤهم
وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ووقفت على
بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ومولم النكال . . .

وبالرغم من هذه الصفات التي تجمعت في ابن خلدون
فكان بفضلها رمز العدالة والصدق والنزاهة فان عالمنا لم يكن في
مامن من حسد الفقهاء ودسائسهم . فرأى نفسه يبعد خمس
مرات عن خطة القضاء في بحر الاربع والعشرين سنة التي قضاها
بارض الكنانة

بيد ان اجلال الملك لهذا الرجل واعجابه بواسع خبرته
وغزير علمه جعله يقربه اليه كي تزدان به اجتماعاته واسماؤه
حتى انه لما هيا العدة وقصد بلاد الشام محاولا رد زحف التتار
طلب منه ان يصاحبه . فكانت تلك الرحلة فرصة ثمينة انتهزها
مؤرخنا للاتصال بالفاتح الكبير تيمورلنك . فاحسن الفاتح وفادته
وعامله معاملة العلماء الاجلاء واسترشده عن احوال بلاد المغرب
فامده بارشادات لم يكن غيره قادرا على امداده بها

ثم رجع ابن خلدون الى القاهرة وعاد لخطة القضاء واستمر
يبعد عنها او يرجع اليها الى ان وافاه الاجل في السادس

والعشرين من رمضان لسنة ثمان وثمانمائة - ١٦ مارس ١٤٠٦
وهو قاض للمالكية في الثامنة والسبعين من عمره ودفن بمقبرة
الصفوية خارج باب النصر وهي مقبرة العلماء غير ان قبره تلف
ولم يعثر عليه بعد

وقد مات ابن خلدون بالقاهرة عربيا لانه لما قرر البقاء
بأرض الكنانة بعث في طلب عائلته من تونس وفي الطريق
عرق السفينة فهلك الامل والولد والمساخ . ولكن الرجل
الذي قضى اربعاً وعشرين سنة بأرض عربية اسلامية في
تكوين طبقات من العلماء والادباء وفي رفع المظالم لم يكن في
الحقيقة يشعر بالغربة ولا بفراغ الدنيا من حوله

فتلك كانت حياة ابن خلدون . حياة علم ودراسة . حياة
طموح وكفاح ومغامرات وتطورات ونكبات . حياة علم ودرس
وانتاج . حياة علم وقضاء . فلننظر الان في هذا الانتاج وما
يمتاز به فيه صاحبتنا عن سواء من المؤرخين والفلاسفة والكتاب .

واذا اعتمدنا في القسم الاول من هذه الدراسة كتاب
التعريف لابن خلدون نفسه . ودراسة الاستاذ محمد عبد الله
عنان في ابن خلدون ، وما كتبه فيه الاستاذ فؤاد قوام
البستاني ، فانا سوف نستعين في القسم الثاني منها بكتاب
الاستاذ الكبير ساطع الحصري ، وبكتاب الاستاذ الدكتور

قاسطون بوقول : الاختصاص في علم الاجتماع وبالاخص بالفصل
الممتع الذي صدر به النشرة الأخيرة من ترجمة البارون دوسلان
خدمة ابن خلدون .

✱ يقول الأستاذ بوقول : « ترك لنا ابن خلدون تاليفاً ضخماً
في التاريخ . يشرك من قسمين . قسم يتناول فيه التاريخ
العام ، وقسم خاص بتاريخ المغرب ، واضعف ما في هذا التاليف
هو القسم المتعلق بتاريخ المغرب القديم . فيظهر ان ابن خلدون
لم يعن عناية كاملة بدراسة التاريخ في اطواره قبل الفتح
الاسلامي ولم يتفهم جيداً الى نظام الدول القديمة التي تدولت
على بلاده ولم يتصور حقيقة ما كانت تراتيب جمهورية قرطاجنة
ولا الامبراطورية الرومانية » ويقول : « وقد خلط بصورة غريبة
في هذا القسم من التاريخ بين الحوادث التاريخية الحقيقية
والخرافات الجارية بين قبائل البدو فذهب يقول : ان الهياكل
الرومانية العظيمة المنتشرة في جميع انحاء بلاد المغرب انما هي
من بناء الجنون . فخبرته ضعيفة بكل ما كان خارجاً عن العالم
الاسلامي . وبالمدينة التي سبقت المدينة الاسلامية » ونراه
يعلن احتقاره لكل هذه المدن في كثير من المناسبات لانه
يعتبر ان الحياة ابتدأت فعلاً بظهور الاسلام وان كل ما كان
سابقاً لهذا العهد انما هو عهد ظلمات يجدر اهماله اذ لا فائدة
معرفته »

لقد سلك الأستاذ بوتول في دراسته لابن خلدون طريقة
النقد الشائعة بين الكتاب والمدرسين ، وهي طريقة الابتداء
بذكر التقائص والأغلاط عندما تكون نية الناقد التنويه
بموضوع الدراسة والإطراب بما فيه من محاسن وكمالات - كما
هي صورة الحال - أو الابتداء بالمحاسن إذا نوى الناقد التنويه
بذلك الموضوع وجعل مساويه تتفوق على محاسنه - فشرح اذن
الأستاذ بوتول في ذكر ما كان في نظره نقص أو ضعف في
تاريخ ابن خلدون لانه لم يضمن فيما بعد بالاعجاب بثرات
صاحبنا وبوضعه في رتبة ممتازة بسلم المفكرين العالمين .

غير انه استعمل عبارات نراها جارحة بالنسبة لرجل في
مقام ابن خلدون وأبدى ملاحظات لا نخالها في محلها . فهو
يرمى ، بالضعف ، قسما من هذا التأليف لانه لم يجد فيه من
التبسط ما تعود ان يجده في التأليف الأوروبي فيما يتعلق
بتاريخ اليونانيين والرومانيين وغيرهم كما انه لم يجد من طرف
ابن خلدون ما يدل على إعجابه بملك الحضارات والمدنيات . وقد
تعجب من ذلك .

ولربما غاب عن ذهن الأستاذ ان ابن خلدون تناول هذا
القسم من التاريخ بصورة عامة وقد اصر على ذكره والتعليق على
قليل من نواحيه ولم ير فيه الا شبه مقدمة لتاريخ المغرب العربي
الذي كان يمت القصيد بالنسبة اليه .

ثم ان الاستاذ لم يهتد الى فهم لفظة « جنون » بالمعنى الذى يعطيه لها ابن خلدون اى « العياقرة » كما لم يفهم غيره لفظة « العرب » بالمعنى الذى اراده ابن خلدون . فراح يقيس تفكير الفيلسوف الكبير على عقلية البدو المعاصرين الذين اختلطت لديهم العقائد بالخرافات . فاعمال العقلاء تضان عن العبت وليس من المعقول اصلا ان نضع ابن خلدون فى صف من يعتقدون ان النباتات الضخمة التى ننساعده اليوم اطلالها هى من صنع الجنون .

ومن جهة اخرى فان خبرة ابن خلدون لم تكن « ضعيفة بكل ما كان خارجا عن العالم الاسلامى » كما يدعى الاستاذ بوتول . اذ انه كتب ما ذكر هرشيوس فى سياق حديثه . وما هرشيوس هذا الا بولرس هوروسيوس المؤرخ الاسبىانى الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى والى كتابا ضخما فى التاريخ عرفه المؤرخون المسلمون ونقلوا عنه . والى جانب هوروسيوس فقد اعتمد ابن خلدون فى نقل روايته عن اليونانيين والرومانيين على ابن العميد وهو من اصح المراجع فى هذا الموضوع .

واما اعلان الاحتقار ازاء المذنبات القديمة فتلك وجهة نظر مؤرخنا وله ان يناقشه فيها .

✕ وينتقل الاستاذ بوتول بعد هذا النقد الافتتاحى الى الاعتراف بفضل ابن خلدون والاطناب بمؤلفه فيقول : « والقسم

الخاص بتاريخ المغرب العربي هو اهم ما في تأليف ابن خلدون . فهو المؤلف الوحيد الذي سجل عن خبرة وبدقة ووضوح جميع الحوادث التي جرت بالمغرب من عهد انجلاء البيزنطيين واستقرار العرب الى ما يقرب من تاريخ وفاته . ويقول فوته : « لولا ابن خلدون لجهلنا كل ما يتعلق بالشمال الافريقي طيلة القرون الوسطى » . وفي هذا العمل كفاية ليكتسب تاريخ ابن خلدون اهمية كبرى . « ومما يزيد في هذه الاعمية هو ان ابن خلدون شرع في تأليفه بقلعة ابن سلامة . بعد انتهائه من كتابة المقدمة وعلى الرافضاء المرحلة الثانية من مراحل حياته اي بعد ما خاض عماد الحياة السياسية على الصورة التي تقدم ذكرها وشارك فيها مشاركة مباشرة اكثر من خمس وعشرين سنة . فكانت خبرته كبرى بالاشخاص والاشياء والاماكن » .

ولا شك في ان ليه ابن خلدون كانت في اول الامر الاكتفاء بتأليف تاريخ البربر اذ يقرب بأنه تعوزه المعلومات فيما يتعلق باهم الشرق . ولذا يرى الاستاذ بوتول ان « في تأليف المقدمة وتاريخ البربر في مدة واحدة ، دليل على ان غالب النظريات التي جاءت في المقدمة هي عبارة عن التزعجات التي تبدو بصورة نادرة في حوادث المغرب » .

ومما يجدر ملاحظته هو ان ابن خلدون لم يطبق في كتابه تاريخه مبادئ الطريقة التي ابتكرها لكتابة التاريخ فكان مؤلفه على غرار ما سبقه من كتب التاريخ اى ذكرها مجردا للحوادث .

لير ان هذه التعاليق التي اهتم بها ابن خلدون في تاريخه قد جمعها في مقدمة كتابه واخرج منها طريقة . لان هذه المقدمة من خلاصة معلومات ابن خلدون ونتيجة خبرته الواسعة . فهي تجمع بين ثقافته الفلسفية من جهة وثقافته التاريخية وخبرته السياسية ومزاورة علومه الفقهية من جهة اخرى . لان ابن خلدون كان فيلسوفا وفقيها مثل غيره من علماء عصره .

فقد كتب فيما كتب وضاع ، تعليقا على مؤلفات ابن رشد وبالرغم من انه ينفي نفيا باتا فضل الفلاسفة عليه ، وبالرغم من تساوة حكمه على ابن رشد كلما جاء ذكره ، فان لهذا الفيلسوف الكبير شيئا من التأثير عليه ، ولو كان ذلك التأثير معاكسا وداعيا لاعتراضاته واحتجاجاته .

وعلى كل فان موقف ابن خلدون من التاريخ ونظرة الى الحوادث بعين الدرس والتجرد . ليس هو الا طريقة البصر والامعان الحجيبة التي اتبعها علماء العرب في العلوم الطبيعية وعلم الفلك والفيزياء وغيرها من العلوم . فهو يتصل حيث

اتصالا متينا بعلماء العرب بالرغم من انكاره ، وما هو الا الحلقة
الاخيرة من تلك السلسلة الطويلة ، التي ابهرت العالم وقامت
المدنية الحديثة على اركانها

هذا من الناحية الفلسفية والعلمية . اما من الناحية
الدينية ، فقد تناول ابي خلدون كثيرا من المواضيع التي وقف
منها الفقهاء والعلماء موقفا نهائيا مدققا ولكن موقفه لم يكن موافقا
لموقفهم . فقد اول تلك المواضيع تأويلا يبعد بعدا محسوسا عن
راى العلماء فيه ويناقضه احبانا كل التناقض غير انه بذل كل ما
لديه من عناية واجتهاد لاجتناب مصادمة العلماء بصورة علنية
مباشرة . فابن خلدون يعلل الفتح الاسلامى بدواع واسباب
مادية . وهذا الفتح هو فى نظره نتيجة مقتضيات اجتماعية
يحللها تحليلًا مفصلا يدون ان يتعرض للعوامل والدواعى الدينية
التي يعلل بها العلماء والفقهاء هذا الفتح .

ويظهر لنا ان تحوى ابن خلدون فى اجتناب اقارة غضب
العلماء والفقهاء عليه يرجع الى سببين اولهما انه اراد البحث فى
موضوعه من ناحية الاجتماعية والمادية . فلم ير فائدة فى
التعرض اليه من الناحية المطروقة التى اتبعها الفقهاء والعلماء .
وثانيهما انه اراد ان يجتنب زويدة نزول به الى ما كان من امر
صدق لسان الدين بن الخطيب فنراه يسلم مبدئيا ، ويدون

جدال بضعة جميع المبادئ الدينية . وهكذا يجد لنفسه أكثر حرية لطرق المواضيع التي يريته درسها بصرف النظر عن النواحي التي تتعلق بالدين .

ويقول بوتول : « فهذا الموقف يذكرنا لا محالة موقف ديكاوت ومونتاني لان ابن خلدون يجتنب فيه مثل الاول كل نقد أو جدال ازاء المبادئ الدينية ولانه يبتغي تأليفه مثل الثاني ، بالمصادفة على كل ما جاء به الدين ، وذلك اجتنابا لكل تهمة بالكفر أو الزندقة . وهي تهمة خطيرة على صاحبها في مثل ذلك العصر .

ونظريات ابن خلدون الفلسفية بيئة واضحة . فهو قبل كل شيء ، متشاورم . الا انه لا يركز تشاوره على اسباب فلسفية بل على مقتضيات تاريخية واجتماعية . ويظهر ان الاراء والنظريات التي عرضها بالمقدمة تنبع عن استكشاف ابن خلدون للفلسفة الاتباعية كما عرفها . فهو يرى ان هذه الفلسفة عقيمة في نتائجها وانها لا توفي بوعودها وانه من الاخرى بالانسان ان يعرض عنها وان يغمر وجهة نظره . »

ورأينا ان النزعة التشاورية قلما تكون خلقية في الانسان وانما هي وليدة ظروف وحوادث تعترضه في حياته الداخلية فتنتفيها عن المسلك الذي كان يسود أن تسيرو فيه أو في حياته

لكن
في
الكتاب
الذي
هو
الكتاب

الخارجية فتحدث في الوسط الذي يعيش فيه تغيرات واتقلابات
لا تنفق وما يراه صالحا لذلك المجتمع ويرى نفسه عاجزا عن
صدها أو مقاومتها . فيشعر بسوء المصير هنا وبالحبيسة هناك .
وتلك هي صورة الحال بالنسبة لابن خلدون . فلا يمكن ان
نتصوره الا متفائلا لما ترك ابن افراكين وقصد المغرب باحثا
عن السمعة والنفوذ والرأسة . وقد رأينا كيف خاض غمار
الحياة السياسية مملوها بالامال وعدفوعا بغيرة الشباب . وكيف
خرج منها ظريفا ذليلا لم ينل منها الا الندم والحسرات . ومن
جهة اخرى فقد احس بان تلك الاضطرابات والمناسبات
والانقلابات ، التي اجتزت لها عروش المغرب ، كانت لا محالة
سائرة بهذه الرقعة من الارض نحو زيادة الضعف وسرعة
الانحطاط . فهذه الحبيسة التي تذوق الى مرارتها ، وهذه الحالة
التي كان يشاهدها ، لم يفتح الرجا من نفسه لما انقطع للتأليف
بقلعه ابن سلامة . فجاء عمله مكسورا بهذه السحرة من الشاؤم
ومن حر الكنانة او المفكر او السياسي الذي لا ينطبع بطابع
التشاؤم اذا ما قرأ كتاب الحياة وتطلع الى ما فيها من مصاعب
ومعاكسات وقليل السرور وكثرة النكبات ؟

« فان ابن خلدون هو اول من قال : « لقد حيان للانسان
ان ينظر الى حقائق الاشياء وجهها لوجه ، وان يوجه عنايته اولا
وبالذات ثلبحث في نفسه وفي المجتمع الذي يعيش فيه » وهذا

في كتابه
الذي هو
الذي هو
الذي هو

ما ينم عن نضج في التفكير يوافقه انشاء علم الاجتماع . وهو في نفس الوقت نوع من الجرأة في تحريض الناس كي لا يشبعوا انفسهم بالالوهام عن حقيقتهم وحقيقة رؤسائهم ، واولى الامر منهم وملوكهم ، ومدنهم . وهذه الجرأة تسمى بالتجرد في ميدان التفكير . وان نحن لم نجد عند ابن خلدون قواعد وطرقا وتجارب مدققة تتقدم بها هذه النظرة الجديدة في المجتمعات ، فانا نستطيع ان نقول مع مونييه :

« ان لابن خلدون شعورا بالنقد النزيه وبالطريقة الاجابية ... »
وان هذا لدليل على تحريره في ملازمة التجرد في حكمه ، وهو تقدم ذو بال بالنسبة لعصره . »

وقد وزع ابن خلدون آراءه ونظرياته الجديدة في المجتمع في كامل فصول الجزء الاول من مؤلفه في التاريخ والمعروف بالمقدمة . فلا بأس اذن من جمعها وايضاحها :

« يعلق ابن خلدون اهمية كبرى على الحالة المادية التي تعيش عليها المجتمعات . باعتبار الطقس ، وطبيعة الارض ، والصناعات واساليب الحياة . فهو سابق لمونتاسكيو فيما يخص اهمية تأثير الطقس كما هو سابق لفلاسفة عصرنا هذا فيما يتعلق بتبادل التأثيرات بين النظام الاجتماعي والعوامل المادية . فقد حلل ابن خلدون تحليلا عجيبا تبادل التأثير بين هذه العوامل المختلفة المتباينة لما تناول بالدرس احوال القبائل

المتنقلة وحياتها - فبعد تحليله لـنفسية الرجل ، وتفسيره لفكرة
التضامن المتين السائدة بينهم ولتعلقهم بالأسرة والعشيرة ولشجاعتهم
ومبرهم واستماتتهم في تحمل المشاق والأتعاب الجسدية ، وعلى
صفات تحملها تلك الحياة القاسية الملاي بالآخطار التي يعيشونها
بعد هذا التحليل والتفسير ، يبين لنا كيف تتغير هذه الطباع
بتغير تلك الحياة ، وكيف يستأنس هؤلاء البدو حياة أهل المدن
وطباعهم ، بما فيها من ملبس ومن فميج ، إذا ما اتسع لهم
صحيح الوصول إلى الأخذ بمقاييد الأمور بفضل تلك الصفات البدوية
وبفضل ما ارتقوا من ميزات في الحرب .

• وهكذا يقيم لنا ابن خلدون الدليل على أنه غير مؤمن
بناص الطباع المراجعة لتبث الناس ، بل يظهر بالعكس من
نظريته هذه أنه يسلم بمرونة في نفسية الإنسان تجعل سلوكه
وطباعه تتكيف بتكيف الطقس وأساليب الحياة والتربية .

وتكيف الطقس وأساليب الحياة تتحكم في تكوين الإنسان
المادى من حيث قوته أو ضعفه ومن حيث درجة مقدرته على تحمل
الأتعاب ومقاومة الشدائد ، وأما التربية فإنها تهيئه للحياة في
المجتمع الانساني - وعبرة التربية جامعة لكل ما يجب على
الإنسان اكتسابه من الاخلاق فاضلة ، ومن علم وثقافة يحقق بها
منزلته في ذلك المجتمع - فلا يجب حينئذ على الإنسان ان يكتفى
باعترازه بشرف نسبه ، أو غلو منه به ليعتبر نفسه متفوقا على

غيره من البشر بل يجب عليه ان يبرز بتربيته ما لفتك المنهية
من عزة وكرامة وقد صدق من قال :

والما الامر الاخلاق ما بقيت فان همو ذهبت اخلاقهم ذهبوا
وهناك خاصية اخرى لمس بعلم الاجتماع وهي ان ابن
خلعون يحاول تفسير الحوادث التاريخية بدون ان يكون
" للشخص اي دخل فيها " وهذا دليل على ان الشخص ليس هو
في نظره الا نتيجة او ضاع الحياة .

فان ما تنتج امة من قادة وزعماء . هو - حسب هذه
النظرية - نتيجة الروح التي يكونها الطغمة واساليب الحياة
والقربة . والظروف المرحية في تلك الامة . وهو اسان حالها
والغير عن نفسياتها وحاجتها . فهي تعمري لطيفة على
غاية من الصدق والوحدة . لان الامر لا يتخضع الا لنظام ينمى
وتنميتها وماهيتها وحلقها ويسمى بها نحر السعادة والرفق في
دائرة تلك الطبيعة والامية والحق . واما التيارات الحارقة التي
يسمونها بالتجددية . والى تربية قلب العفائد والتقاليد
والعادات راسا عن عقب . فان مصيرها الحيرة والاختناق لا محالة .
وعندما يدى ابن خلعون قاعدته القذالة بان الصفات
اللازمة للاستمرار على الحكم والمحافظة عليه قد اري حسا بعد
اربعة اجيال . فانه لا بدخلة الشك في صحة تلك القاعدة مهما
كان جنس المجتمع وعيها كان مكانه .

«ويصرح ابن خلدون في ابتدائه هذه النظريات بأنه لا يعتمد في تأويله الحوادث التاريخية . الا على التوثائق المستخرجة من طبيعة الاشياء .»

ولقد كان ابن خلدون صادقاً في قوله عندما قال ان هذا العلم لم يسبقه اليه احد . فان جميع المساعي التي بذلها دارسو المقدمة . من عرب ومستشرقين في البحث عن مصادر او مراجع يكون ابن خلدون قد استقى منها مواضيع مقدمته لم تات بنتيجة لان ابن خلدون لم يعتمد على ما سبقه في هذا الميدان سواء من المدنيات القديمة او من العرب أنفسهم ولم يتخذ منه اى منهج في ابناء علمه الجديد او تسميطر طريقته الجديدة في كتابة التاريخ . - فانه لا يوجد اى وجه شبه بين المجتمعات كما تصورها ابن خلدون ووضعها ، وكما تصورها ووضعها ارسطو وافلاطون مثلاً . فان هذين الفيلسوفين العظيمين ركزا نظريتهما على المجتمع اليوناني وهو مجتمع تمتنع دائماً بنظام جمهوري ولم يخضع للحكم الفردي الا بصورة عرضية وفي فترات قصيرة من تاريخه . اما مجتمع ابن خلدون فهو قائم على السمنة المتبعة في الشرق وهي ان الدولة خاضعة دائماً للحكم الفردي المطلق . كبيرة كانت او صغيرة . واذا تحدث عن استيلاء على الحكم او ضياعه . فانه يفصد دائماً صعود دولة او انهيار دولة من ذوى السلطة المطلقة . اما النظام الديموقراطي فانه لا يذكره الا عند القبايل النائية .

البعيدة عن المدنية والتي اعنت على نفسها من كل ضغط وجبروت
بفضل طرفيها في الحياة وانتقالها المستمر . وهذا الاستقلال ،
وعنه النخوة ، هما اللذان اكسبا القبائل روح التضامن والعصية ،
لكن هذه الروح تزول اذا ما ظفرت قبيلة بالحكم والتسيطر لانها
تخضع لانفس سياطاتها من الدول وتكون فيها روح سياطاتها .
وبعد هاتين النظريتين عن تعقيبا غنى عن كل دليل

واما الفلسفة والكتاب عن العرب الذين تناولوا هذا
الموضوع من بعض النواحي ، فعددهم كبير وقد ذكرهم ابن خلدون
فيما ابن قتيبة الذي خصص بابا من كتاب « عبود الاخير »
سماه « كتاب السلطان » ذكر فيه الميزات التي يجب ان يمتاز
بها السلطان . وهو « مجموعة من الاموال والحكم المأثورة » .
اقرب الى التصح والموعظة منه الى العرض والشرح ، وهذا
الفيلسوف ابو نصر الفارابي ، يمس في مباحثه موضوع المجتمع
والاجتماع بطريقة فلسفية ، فمحدث في كتابه « مبادئ آراء
الحق المدنية الفاضلة » عن حاجة الانسان الى الاجتماع والتعاون
وعن تنافس القرى والمدن ، وعن خصال رئيس المدينة الفاضلة .
وهذه رسائل « الخوان الصفا » الفلسفية ، تناول بصورة غرضية
الكلام عن بعض الموضوعات السياسية والاجتماعية . وهذا كتاب
« الاحكام السلطانية » لابن الحسن الماوردي وهو يتحدث فيه عن
الامامة وشروطها وعن الامارة والوزارة والقضاء وشروط كل من

عنه المناصب من الناحية الفقهية على المذهب الشافعي وهذا كتاب
« سراج الملوك » لأبي بكر الطرطوشي . فقد تناول فيه هذه
المواضع من الناحية الاخلاقية والفلسفية .

فمقول ابن خلدون في هذه الكتب : ان في كتاب
« السياسة » لارسطو جزءا صالحا من موضوع علمه الا انه غير
مستوف ولا معطى حقه من البراهين . وكذا في كلام ابن المقفع
وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل
علمه غير مبرهنة كما برهنها . ويصارحنا بان الطرطوشي « قد
حوم على كتاب سراج الملوك وبوبه على ابواب تقرب من ابواب
كتابه ومسائله لكنه لم يصادف فيه الرمية . ولا احاط
الشاكلة . ولا استوفى المسائل . ولا اوضح الادلة . انما يسيب
الباب للمسالة ثم يستكثر من الاحاديث والاثار وكانه حوم
على الفرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده .

فابن خلدون ان طرق نفس المواضيع فانه سلك مذهبا
اجماعيا بحثا يؤيد قوله انه علم جديد لم يسيقه اليه احد
« فمقدمة ابن خلدون هي اولا وبالذات محاولة ناجحة
لاشياء علم الاجتماع ولابتكار طريقة جديدة في النقد التاريخي
فهو يحمل حملة عنيفة على طريقة قدماء المؤرخين من العرب في
الحوادث والوقائع التاريخيه والخرافات بدون اي تمييز . وفي
سعيهم وراء اظهار سعة اطلاعهم وغزارة معلوماتهم . »

مكتبة
جامعة
البحرين

⑤ فحقيقة التاريخ . حسب ابن خلدون . هي . انه خبر عن
الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم . وما يعرض لطبيعة
ذلك العمران من الاحوال . مثل الفدوحات . والناس .
والعصبيات . واصناف المذهب للبشر بعضهم على بعض . وما يشهد
عن ذلك من الممالك . والدول . وهراتها . وما يتخلله البشر
بأعمالهم ومسايعهم من الكسب . والمعاش . والعلوم . والصنائع .
بما تاتي ما يحدث في ذلك العمران بطبيعة الاحوال .

ر يقول الاستاذ سامع الحصري عمدا لهذا التحديد ليعنى
التاريخ ان موضوع التاريخ في نظر ابن خلدون . واسع جدا .
وهو لا ينحصر بما حدث من الفدوحات والحروب . وما توالي من
الدول والممالك في الازمنة الغابرة . بل يشمل كل ما حدث من
التحول في الحياة الاجتماعية على اختلاف مظاهرها . وفي المؤسسات
الاجتماعية على اختلاف انواعها . فان الاخبار المتعلقة بالاحوال
الاقتصادية والصنائع . والعلوم ايضا تدخل في نطاق موضوع التاريخ
فابن خلدون يتفوق بنظرينه هذه على جميع المؤرخين الذين سبقوه
لا في الشرق فقط . كما يبدو من كلام المستشرقين . بل وحتى
في الغرب ايضا . بوجه عام . وعلى جميع الذين اتوا بعده خلال
اربعة قرون على اقل تقدير .

و هذه النظرة الشاملة . المتوسعة . هي ما يسمى الان
بتاريخ الحضارة .

ويقول ابن خلدون : « ان فن التاريخ من الفنون التي
تتداولها الامم والاجيال ، وتشهد اليه الركائب والرجال ، وتسمو
الى معرفته السوق والاعغال ، وتتنافس فيه الملوك والاقبال . اذ
هو في ظاهره لا يزيد على الاخبار عن الايام والدول ، والسوابق
من القرون الاول . ينمو فيها الاقوال ، وتضرب فيها الامثال ،
ونطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال . وتؤدي لنا شان الخليفة
كيف تقلبت بها الاحوال . واتسع فيها لدول النطاق والمجال .
وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال .
وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق .
وجدير بان يعد من علومها خلق » .

والنظر الى التاريخ بهذا المنهج الجديد يقتضى اولا وتمحيص
الاخبار . ثانيا . تعليل الوقائع .

فتمحيص الاخبار . لتمييز الحق من الباطل . والصدق من
الكذب فيها . وللتأكد من مطابقتها للواقع . لان الغلط والوهم
نسب للاخبار واخليل . ولان الاخبار والحكايات مظنة الكذب ،
ومظنة التهور . ولان الكذب متطرق للخبر بطبيعته .

ويذكر ابن خلدون الاسباب الداعية للكذب فيقول :
« فمنها التشيعات لاراء والمذاهب . فان النفس اذا كانت في
حالة الاعتدال في قبول الخبر اعطته حقه من التمحيص والنظر ،

حتى تبين صدقه من كذبه . واذا خامرها تشيع لرأى او نجله .
فبنت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة ، وكان ذلك المبل والتشيع
غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص . فتقع في قبول
الكذب ونقله .

ومنها الثقة بالناقلين . وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل
والجريس .

ومنها الذهول عن المقاصد . فكثير من الناقلين لا يعرف
القصد بما عاين او سمع . وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه .
فيقع في الكذب .

ومنها توهم الصدق . وهو كثير وانما يحى . في الاكثر
من جهة الثقة بالناقلين .

ومنها الجهل بتطبيق الاحوال على الواقع . لاجل ما
بداخلها من التلبيس والتنطع على غير الحق في نفسه .

ومنها تقرب الناس في الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب
بالدناء والمدح وتحسين الاحوال . واشاعة الذكر بذلك .
فيستفيض الاخبار بها على غير حقيقة . فالنفوس مولعة بحسب
الدناء . والناس متطعمون اى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة .
وليسوا في الاكثر براغمين في الفضائل . ولا متنافسين في اهلها .

« ومن الاسباب المقتضية له ايضا ، وهي سابقة على كل ما تقدم ، الجهل بطبائع الاحوال في العمران . فان كل حادثة من الحوادث ، ذاتا كان او فعلا ، لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته . وفيما يعرض له من احواله . فاذا كان السامع عارفا بطبيعة الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب . وهذا ابلغ في التمحيص من كل شيء يعرض . »

تلك هي الاسباب الداعية للكذب في نظر ابن خلدون ، ولو اردنا تفسيرها وشرحها بامثلة تنطبق على كل صورة من الصور ، لذهبنا في الكلام طويلا لان فيها وحدها موضوعا لمحاورة كاملة . ففككت اذن بعض المسائل ، ولتلفت اولا نظركم الى ان ابن خلدون يقصد بعبارة « الكذب » ما كان باطلا وعسرا صحيح كما انه يقصد بعبارة « الحسن » في حديثه عن تقاة المعالم الرومانية والبيزنطية التسمية لعبارة ، غير غاديين . وكما يقصد بعبارة « العرب » الاعراب اى سكان البادية وخصوصا اولئك الذين بعث بهم الوزير الفاطمي ابو الحسن البازوري من صعيد مصر ليلتم من المعز بن باديس فكانت الزحف الهلالية المشهورة . وبذكر لنا الاستاذ صاطع الحصرى ، في كتابه عن مقدمة ابن خلدون ، ما نشأ ببلاد العراق بسبب فهم هذه العبارة ، اى

العرب ، فهما معكوسا . فقد نازت الحكومة العراقية ضد
مؤلفنا ، فأمرت بأحراق مؤلفاته . فاضطر الاستاذ الحصري الى
القيام بحملة ضد هذا الصنيع افهمهم فيها قصد ابن خلدون من
هذه العبارة .

ومن الاسباب التي ذكرها ابن خلدون ما يكون فيها الكذب
مقصودا سواء اكان ذلك من قِبَل المتحامل او المتعلق او الجهل من
كرامة شخصية او شرفها ، ومنها ما يكون غير مقصود كالنقص
بالنقل او الجهل بتطبيق الاحوال على الواقع او الجهل بطبائع
الاحوال في العمران .

ويسطر لنا ابن خلدون الحطة التي يجب اتباعها للتمييز
بين الصحيح والباطل من الاخبار فيقول انه يجب النظر في
مبلغ صدق الرواة وامانتهم من جهة ، والتفكير في درجة امكان
الوقائع من جهة اخرى .

فاما صدق الرواة ، فان النظر فيه يقع بالتجريح
والتعديل ، وهى الطريقة المتبعة لدى علماء التفسير ونقله
الحديث . واما درجة امكان الوقائع المروية فانها تقوم على علم
العمران .

فيقول ابن خلدون : « انما كان التعديل والتجريح هو
المعتمد في صحة الاخبار الشرعية لان معظمها تكاليف الخلق ،

أوجب التضارخ العمل بها . منى حصل الظن بصدقها . وسبيل
صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والنسب .

وأما الاخبار عن الواقعات فلا يسد في صدقها وصحتها من
اعتبار المطابقة . ولذلك وجب ان ينظر في امكان وقوعه . وصار
فيها ذلك اهم من المعدل ومقدما عليه .

هذا فيما يخص التخصيص . وأما تعليل الوقائع . فهو في
نظر ابن خلدون من اهم واحسن المؤرخين . لانه ان لم يكن له
واقعة تضبطه .

فهذه الطريقة في كتابه التاريخ وتقدمه على التي اصبحت
معمولا بها في هذا العصر مع توسع كبير في المصادر التاريخية
لأن ما اعادته الحفريات على وجه الارض من آثار العصور الغابرة
في جميع انحاء العالم قد جلبت به تفسيرات كثيرة على التفسيرات
التاريخية القديمة واصبحت المرجع الاول لدراسة التاريخ بمورد
جديدة صحيحة .

والنقد التاريخي . حسب التعريف العصري . هو ضبط
العلاقة بين المواد والمراجع التاريخية الموجودة تحت طمس
الباحث وتصرفه . وبين الحوادث التي يمكن ان تنامي معرفتها من
مادة المواد والمراجع .

وتختلف اساليب النقد التاريخي باختلاف المواد والاشياء
التي يبحث فيها المؤلف . ولكنها تعتمد دائما اجراء عمليتين .
العملية الاولى هي ضبط قيمة المراجع ، والعملية الثانية هي
تاويل تلك المراجع . معناه . بلغة ابن خلدون ، التمهيد
والتعليل .

ومعرفة التاريخ تكتسب من الآثار التي خلفتها الحوادث
والوقائع والمدنيات . فمنها الآثار المادية ، كبقايا الهياكل والمعالم
وادوات الاشغال اليومية ، والاسلحة ، والاعمال الصناعية والفنية
ومنها الآثار الخلقية كاللغات ، واللهجات ، والعقائد والتقاليد .
وانعادات ، والحكايات المنقولة ، ومنها الوثائق الكتابية على
الخلايف انواعها من ادب وثقائش ، وعقود ومعصيات ، وذكريات
واعتاريب ، ومراسلات - فيتناول الباحث نقد كل واحدة منها
بالطريقة الخاصة بها ، فيضبط اصلها ومرجعها باكثر ما يمكن من
الدقة . ويرجعها الى زمانها ومكانها ، ويعيد بقدر الامكان الى
اصلها الوثائق التي تانرت بمر الايام . ويقدر قيمتها واهميتها
ثم ينظمها باعتبار كل واحدة منها بالنسبة لموضوع بحثه
ودراسته ، ويتحقق من صحتها بطريقة المقارنة بينها ، ثم يجمعها
وينسق بينها بعمومات مؤالمة او منماشية ، وبهذه الصورة
يتوصل الى ربط العلائق الموجودة بين تلك المواد والحقائق
التاريخية .

فإذا قارنا بين هذا التحديد وتحديد ابن خلدون تبين لنا
بوضوح ان فيلسوفنا رمى لنفس الغاية وابدى نفس الطريقة وانه
هو اول من انشأ علم الاجتماع وجعله المرجع الاول لمعرفة
التاريخ ودراسته درساً صحيحاً مدقّقاً .

فعلم الاجتماع . في نظر ابن خلدون . وباعتبار الاوساط
التي تعرف اليها معرفة جيدة . هو البحث في العمران البشري
بصورة عامة . واصنافه . وفي العمران البدوي . وذكر الامم
والقبائل الوحشية . وفي الدول والخلافة والملك . وذكر المراتب
السلطانية وفي العمران الحضري والبلدان والامصار . وفي الصنائع
والعاش والكسب ووجوهه . وفي العلوم واكتسابها وتعلمها .
وبعبارة اوضح فان علم الاجتماع هو كل ما يتصل بحياة الانسان
وتطوره من الحالة الابتدائية . الى الوحشية . الى الحضارة وما
تقضيها من اساليب الحياة .

وقد اتينا باختصار على بعض من آراء ابن خلدون ونظرياته
في علم الاجتماع وقد خصص له الجزء الاول من كتابه النفيس .
وهذا الاختصار كاف في نظرننا بالنسبة للغاية التي نرمى اليها
دراستنا هذه . وعلى من يريد زيادة الامعان والتبحر في هذا
الموضوع الواسع ان يختبر اهم المراجع التي اتخذناها مصدراً
لعملنا هذا وهي اولاً كتاب التعريف . لابن خلدون نفسه . ثم

كتب الاساتذة الثلاثة طه حسين ، وساطع الحصري ، ومحمد عبد
الله عنان . وقد ذيل هذا الاخير كتابه الشيق بملحق ذكر فيه
جميع المصادر العربية والغربية الصالحة لدراسة فيلسوفنا
ومؤرخنا ، وكتب المستشرقين وهي ، خلافة عن تراجم دوسلان
وديفانجيه ودومونين . : : : الراء الاقتصادية لفيلسوف عربي
بالقرن الرابع عشر لمؤنه . نشرتها مجلة التاريخ الاقتصادي
والاجتماعي ، وكتاب فوسيه في عصور المغرب المظلمة واطروحة
الاستاذ بورتول عن ابن خلدون .

نقى لنا ان نقول كلمه وجيزه عن لغة ابن خلدون وطريقته
في الانشاء وعن طريقة ثابته كان هو مبتكرها بالنسبة للمؤلفين
العرب ، وهي التعريف بنفسه .

اما فيما يخص اللغة فانه يمكن لنا ان نقول انه كان لابن
خلدون لغة لادب ولغة للادب . فقد انشأ مؤرخنا علما جديدا .
ومن الطبيعي ان يجد المفردات والعبارات اللازمة للتعبير عن
مقاصده في ابواب هذا العلم ، ومن الطبيعي ايضا ان يكتسب هذه
المفردات والعبارات وحتى التراكيب شئ من الغموض . فلغة
الفلاسفة والمفكرين تحتاج دائما الى شرح وتفسير وتعليق . وقد
خصص الاستاذ الحصري فصلا من كتابه عن ابن خلدون للذكر
العبارة والالفاظ التي قصد ابن خلدون بها معنى خاصا في

دراسته . كلفظة « الابنية » التي يقصد بها الحيام فيقول :
« واقتصروا على الظاهر الحامل للانتقال والابنية ، او كلفظة « المصانع »
يقصد الابنية فيقول : « ومنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة
الساحة ، المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة » .
وكذلك عبارات « الوازع العصاني » و « والتكاليف الانشائية »
وغيرها من العبارات التي لها معنى خاص بالمقدمة .

والى جانب هذه اللغة المتعقدة المقتضبة نراه يسلك في ذكر
الحوادث التاريخية وفي رسائله الشخصية والادارية طريقة ادبية
رائعة تجعله في مكان عال بين كتاب عصره وادبائه . وهو يسلك
طريقة ذلك العصر الذي طغى عليه الميل الى التثنيق في اللغة
وجودة العبارة واستعمال البديع وذلك قبل رحلته الى مصر
وانغماسه بين ادباء المعاليك .

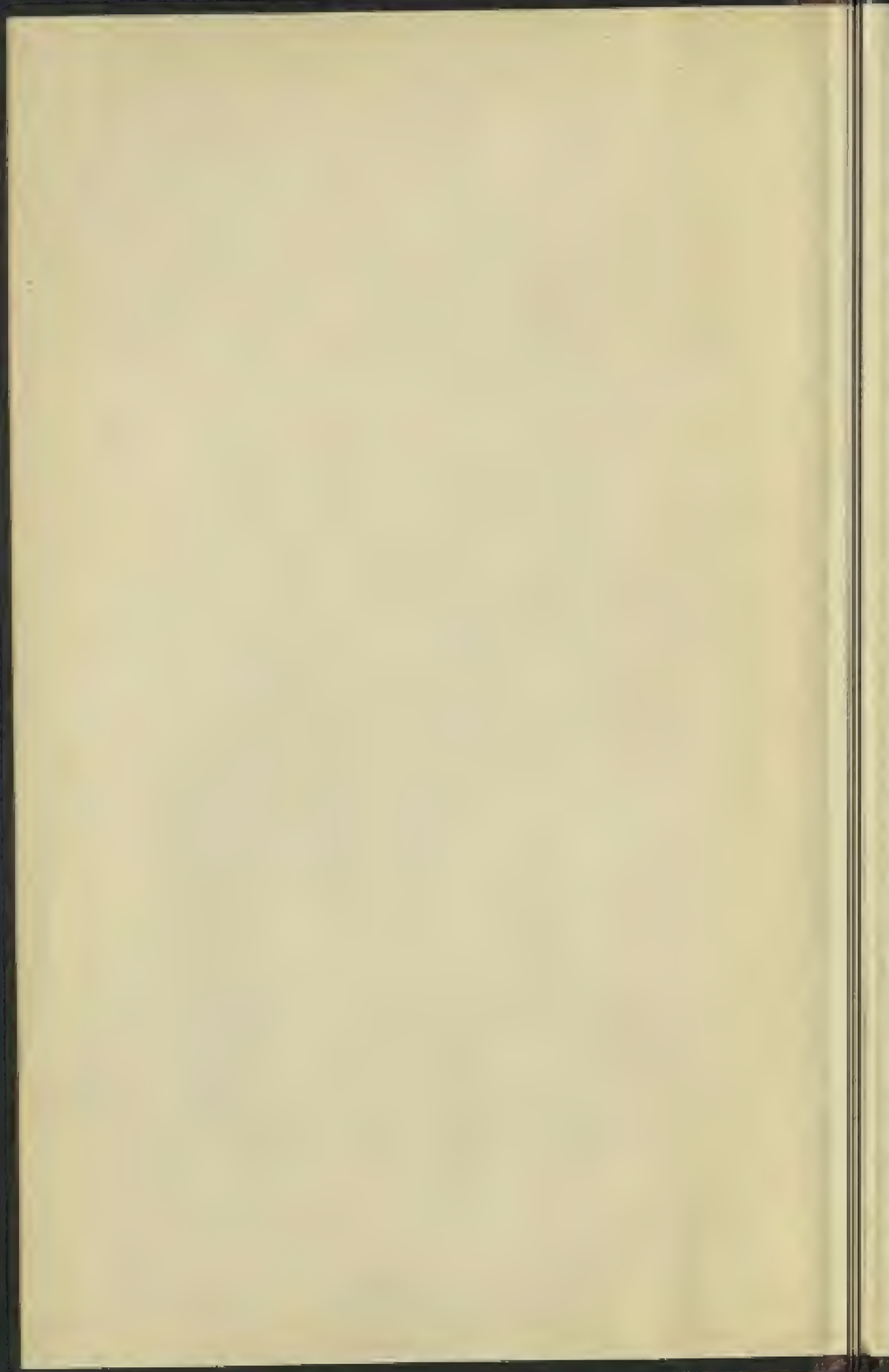
واما التعريف بنفسه . الذي افرد له قسما كبيرا من الجزء
السايع من كتاب العبر - وطبعه محمد بن تاويست الطنجي على
حدة سنة ١٩٥١ . بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . فهو
عمل كان ابن خلدون اول من قام به من الكتاب العرب . وقد
اعتبر الاستاذ الاب اليسوعي فؤاد افرام البستاني هذا العمل
من قبيل الدعوة والاعتزاز بالنفس . وهو قول لا نراه وجيها
لان التعاريف هي من اهم الوثائق التي يعتمد عليها المؤرخون لما

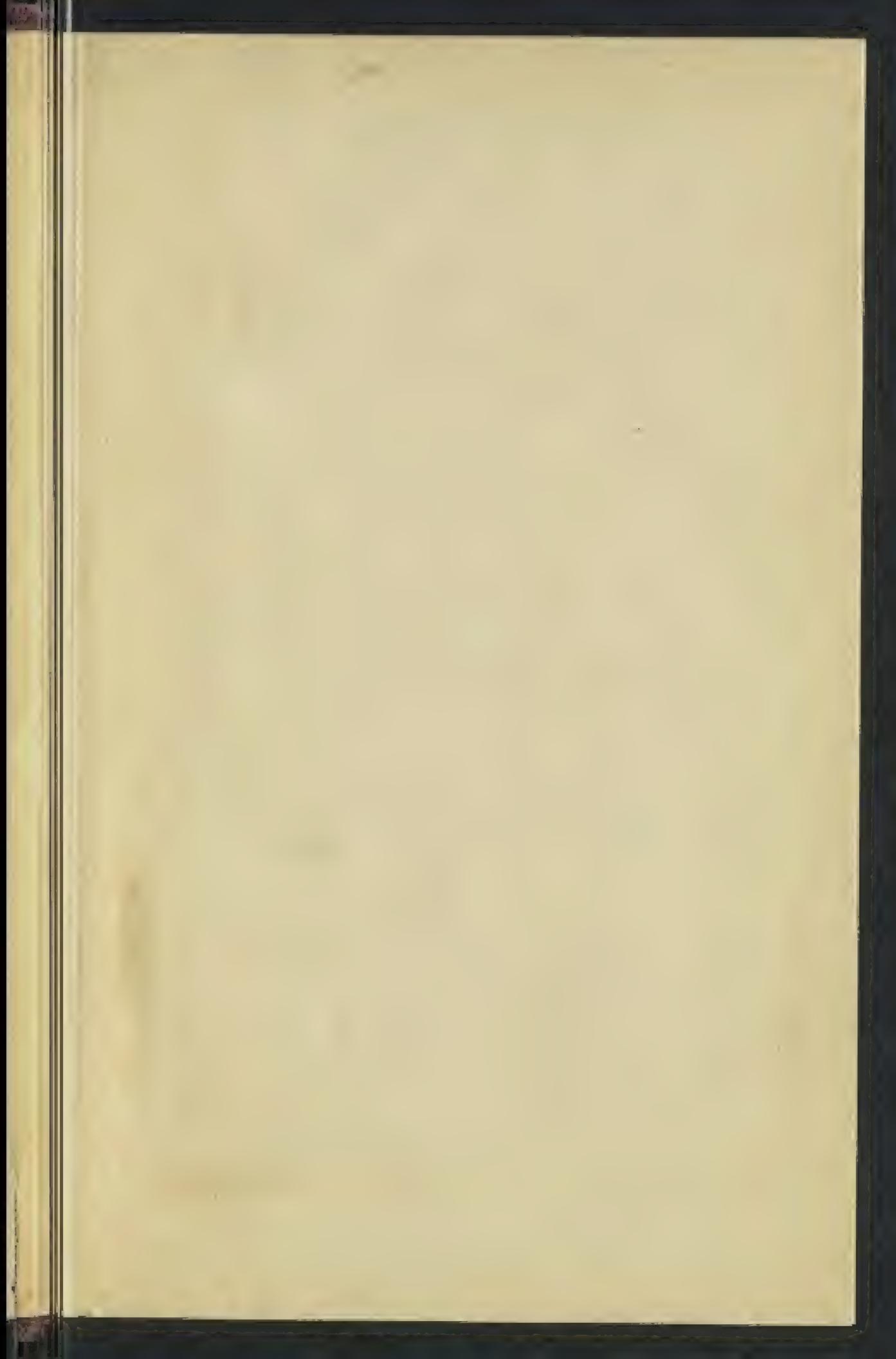
تحتوى عليه من اوسادات . وملاحظات شخصية عن العصور التى
عاش فيها اصحابها . وهى من قبيل المذكرات التى اعتاد كتابتها
كثير من عظماء الناس وحى من غير العظماء لطرق نواح من
الحياة لا يتناولها المؤرخون بنفس التفصيل . ولو لم يكن ابن
خلدون الا التعريف بنفسه . لكان ذلك التعريف كافيا لمعرفة
الكثير عن احوال المجتمعات المغربية فى ذلك العصر الحافل
بالحوادث .

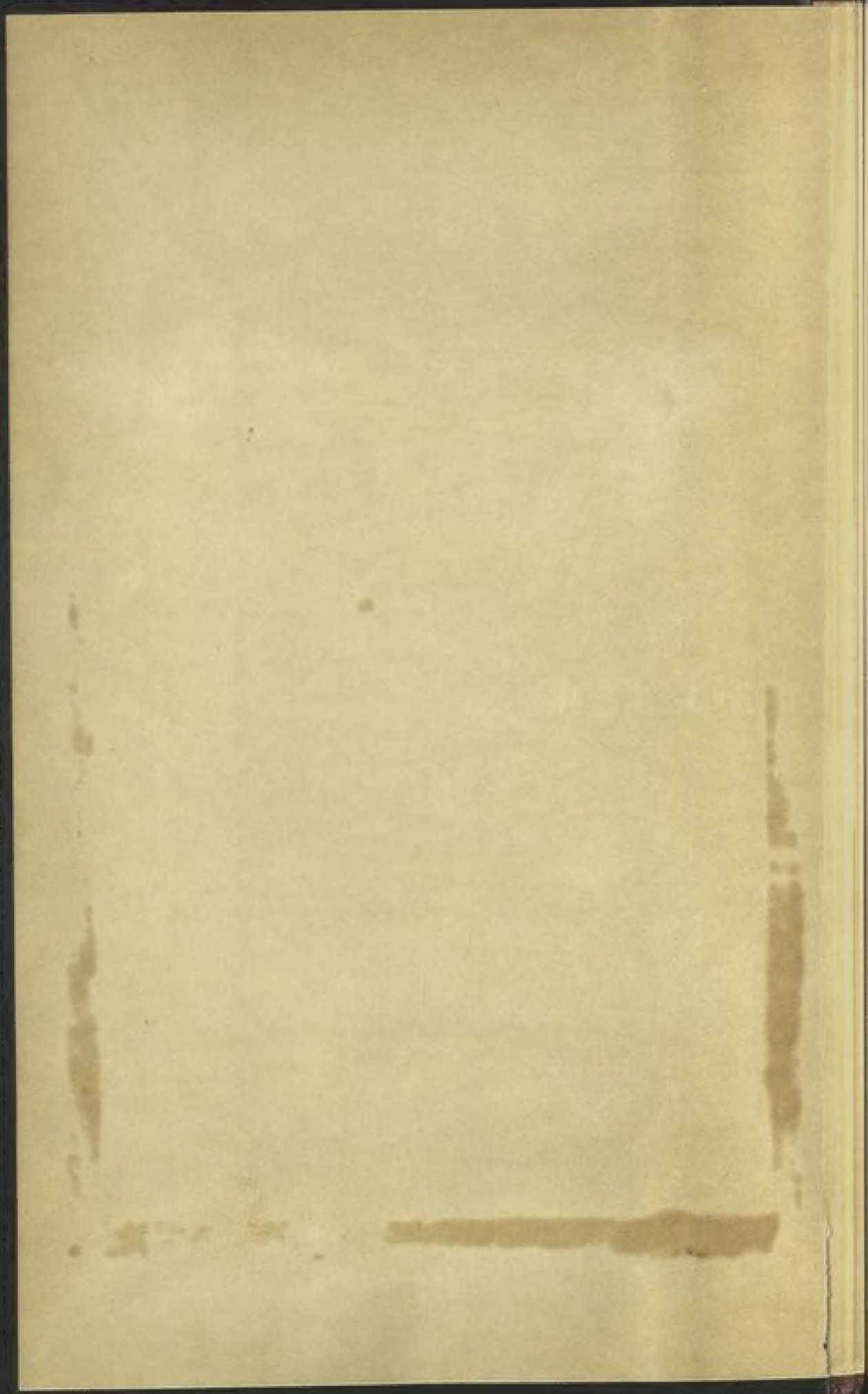
فهذا ابن خلدون كمؤرخ وكمال اجتماعى . فقد راينا
كيف كانت حياته السياسية سببا فى اكتسابه تلك المعلومات
العميقة المدققة ، وتلك الخبرة الواسعة التى حملته على التأليف .
فجاء درة يتيمه فى جبين العلم والادب العربيين وان ما استطعنا
تقديمه فى هذه العجالة لا يقى بحقه فى الدراسة . فابن خلدون
حرى بأن تخصص له لا محاضرة واحدة بل عشرات من المحاضرات
كى ينظر فى جميع آرائه ونظرياته واساليبه فى الكتابة .

تمت









DATE DUE

~~LIBRARY~~
~~1896~~



~~J. Lib.~~
~~8 JUL 1908~~



928.927:I45zA:c.1

الزمرلي، حسن

عبد الرحمن بن خلدون

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01000000

928.927:I45zA

الزمرلي

928.927

I45zA

928.927
I45zA